# درجات السلم التسع والثلاثون

جون بوكان

# درجات السلم التسع والثلاثون

**تأليف**
**جون بوكان**

ترجمة
زينب عاطف

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

# درجات السلم التسع والثلاثون

جون بوكان

# Thirty-Nine Steps

John Buchan

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٤٦ ٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| ١- الرجل الذي مات | ٩ |
| ٢- بائع الحليب ينطلق في أسفاره | ٢١ |
| ٣- مغامرة صاحب النزل الأديب | ٢٧ |
| ٤- مغامرة المرشح الراديكالي | ٣٩ |
| ٥- مغامرة عامل إصلاح الطرق ذي النظارات | ٥١ |
| ٦- مغامرة عالم الآثار الأصلع | ٦١ |
| ٧- صياد السمك | ٧٧ |
| ٨- ظهور جماعة بلاك ستون | ٨٩ |
| ٩- درجات السُّلَّم التسع والثلاثون | ٩٧ |
| ١٠- تجمع مختلف الأطراف على ساحل البحر | ١٠٥ |

**إلى توماس آرثر نيلسون (فوج لوثيان وحرس الحدود)**

**عزيزي تومي**

لطالما كنَّا نُضمر، أنا وأنت، حبًّا لهذا النوع الأساسي من القصص الذي يُطلِق عليه الأمريكان اسم «رواية الدايم»، والذي نعرفه نحن باسم «الرواية المثيرة الصادمة»، وهي الرواية التي تستعصي أحداثُها على كافة الاحتمالات، وتتحرك داخل حدود الممكن فحسب. أثناء مرضٍ أَلَمَّ بي في الشتاء الماضي، استنفدتُ مخزوني من تلك العوامل المساعدة على الابتهاج، مما دفعني إلى كتابة واحدة لنفسي. هذا العمل الصغير هو نتاج هذا، وأودُّ وضْعَ اسمك عليه تذكارًا لصداقتنا الطويلة، في الأيام التي تكون فيها أكثرُ القصص جموحًا متوقعة بشكل أكثر من الحقائق.

جيه بي

الفصل الأول

# الرجل الذي مات

عدتُ من لندن في نحو الساعة الثالثة في مساء ذلك اليوم من شهر مايو يكتنفني ازدراءٌ شديدٌ للحياة. كنت قد قضيتُ ثلاثةَ أشهر في مسقط رأسي وسئمتُ منه. لو كان أحدٌ أخبرني منذ عامٍ مضى أن شعوري سيكون هكذا لكنت ضحكتُ من قوله؛ لكن هكذا كانت الحقيقة. جعلني الطقسُ متعكرَ المزاج، وكانت أحاديثُ الرجال الإنجليز العاديين تُشعرني بالاشمئزاز، ولم أستطعْ ممارسةَ ما يكفي من التمارين الرياضية، وبدتْ لي أماكنُ التسلية في لندن عديمةَ المعنى تمامًا مثل زجاجة مياه غازية تُرِكَت في الشمس. ظللْتُ أقول لنفسي: «ريتشارد هاناي، أنت في المكان الخطأ يا صديقي، ومن الأفضل لك الخروجُ منه.» كنت أَعَضُّ على شفتيَّ انزعاجًا حين كنت أفكر في الخطط التي ظللتُ أضعُها طوال السنوات الأخيرة في بولاوايو. لقد جنيتُ مالًا ولكن ليس الكثير منه، واكتشفتُ كافة أنواع الطرق للاستمتاع بوقتي. كان والدي قد أخرجني من اسكتلندا في سنِّ السادسة، ولم أَعُدْ إليها منذ ذلك الحين؛ ولهذا كانت إنجلترا محاطةً في ذهني بهالة من الغموض وكأنها حكايةُ ألف ليلة وليلة، واعتزمت أن أستقرَّ هناك وأُمضيَ ما بقيَ لي من العمر فيها.

إلا أن أملي فيها خاب من البداية؛ ففي خلال أسبوع تقريبًا كنتُ قد سئمتُ من الذهاب إلى المزارات، وفي أقل من شهر كنتُ قد اكتفيت من المطاعم والمسارح وسباقات الخيل. لم يكن لديَّ صديقٌ حقيقيٌّ أتنقَّلُ معه، وربما يفسِّر هذا سأمي الشديد؛ فكثير من الأشخاص دعوني إلى منازلهم، لكن لم يبدُ عليهم الاهتمامُ بي كثيرًا؛ فكانوا يطرحون عليَّ سؤالًا أو اثنين عن جنوب أفريقيا، ثم ينشغلون بأمورهم. دعتْني سيداتٌ كثيرات من المؤيدات للاستعمار لتناول الشاي لمقابلة نظَّار مدارس من نيوزيلندا، ومحررين من فانكوفر، وكان هذا أسوأ الأنشطة على الإطلاق، وهكذا كنت في السابعة والثلاثين من عمري، في تمام الصحة والعافية، ولديَّ ما يكفي من المال لأستمتعَ بوقتي، ومع ذلك أشعر بالضجر والسأم الشديد

طوال اليوم. كنت قد أوشكتُ على أن أحزمَ أشيائي وأعودَ أدراجي إلى جنوب أفريقيا؛ فقد كنت أكثرَ رجل يشعر بالسأم والضجر في المملكة المتحدة.

في عصر ذلك اليوم كنت أُزعِج وسطائي الماليين بشأن استثماراتي لأشغل عقلي بشيء ما. وفي طريق عودتي إلى المنزل عرَّجتُ على الملهى الليلي، الذي كان أشبهَ بحانة، والذي كان يستقبل أفرادًا من المستعمرات. ظللتُ وقتًا طويلًا أحتسي الشراب وأقرأ الصحف المسائية. كانت الصحف تزخر بأخبارٍ عن الوضع المضطرب في الشرق الأدنى، وكان ثمَّة مقالٌ عن كاروليدس، رئيس الوزراء اليوناني. أُعجبتُ إلى حدٍّ ما بالرجل؛ فمن بين جميع الأخبار بدا أنه أهمُّ رجل على الساحة، وكان يُمارس السياسة بنزاهة أيضًا، وهو الأمر الذي لم يكن ينطبق على معظم الباقين. استخلصتُ أنهم كانوا يكرهونه بشدة في برلين وفيينا، ولكننا سنبقى في صفِّه، وذكرتْ إحدى الصحف أنه كان يُمثِّل الحاجزَ الفاصل الوحيد بين أوروبا والهلاك. أذكر أني تساءلتُ عما إذا كنت أستطيع الحصول على وظيفة في تلك الأنحاء. تراءى لي أن ألبانيا كانت من نوعية الأماكن التي قد يبتعد فيها المرءُ عن الشعور بالضجر.

في حوالي الساعة السادسة عدتُ إلى البيت، وارتديتُ ملابسي، وذهبتُ لتناول العشاء في فندق كافيه رويال، وتوجَّهتُ إلى قاعة الموسيقى هناك. كان عرضًا سخيفًا؛ إذ كان كلُّ مَن هناك نساءً ورجالًا بوجوه تُشبه وجوه القرود يتقافزون في مرح، ولم أبقَ هناك وقتًا طويلًا. كانت هذه الليلة طيبة وصافية وأنا أسيرُ عائدًا إلى الشقة التي كنت قد استأجرتُها بالقرب من شارع بورتلاند بليس. اندفعتْ حشودُ الناس تتخطَّاني على الأرصفة، منشغلين ويتحدَّثون، وكنت أحسدُ الناس على انشغالهم بشأنٍ ما. كان ثمة اهتمامٌ ما بالحياة لدى هؤلاء الفتيات العاملات في المحال، ورجال الدين، والرجال المتأنقين، ورجال الشرطة، يجعلهم يواصلون حياتهم. أعطيتُ نصف كراون لشحَّاذ لأنني رأيته يتثاءب؛ فقد كان زميلًا لي في المعاناة. عند محطة أوكسفورد سيركس نظرتُ إلى السماء الربيعية وأخذتُ عهدًا على نفسي؛ سأعطي مسقط رأسي هذا يومًا آخرَ لأحاول أن أجدَ شيئًا يناسبني، وإن لم يحدث شيءٌ، فسأستقلُّ السفينة التالية المتوجهة إلى كيب تاون.

كانت شقَّتي في الطابق الأول في مجمَّع سكني جديد خلف شارع لانجهام بليس. كان يوجد سُلَّم مشترك يقف أمام مدخله بوابٌ وعاملٌ للمصعد، لكن لم يكن هناك مطعمٌ أو أيُّ شيء من هذا القبيل، وكلُّ شقة كانت منعزلةً إلى حدٍّ كبير عن باقي الشقق. أكره وجود الخدم الدائم في الشقق السكنية؛ ولهذا طلبتُ من أحد الأشخاص أن يأتيَ ليعتنيَ بي وكان

يأتي في فترة النهار. كان يصل قبل الثامنة من صباح كلِّ يوم، ويغادر في تمام السابعة مساءً؛ فلم أكن أتناول طعام العشاء في المنزل قَطُّ.

كنت على وشك أن أولجَ مفتاحي في الباب حين لاحظتُ وجود رجل بجواري. لم أرَه وهو يقترب مني، وظهورُه المفاجئ جعلني أجفلُ. كان رجلًا نحيلًا، بلحية قصيرة بُنِّيَّة اللون، وعينين صغيرتين زرقاوين وثاقبتين. تبيَّنتُ أنه الساكن في الشقة الموجودة في الطابق العلوي، والذي كنتُ قد أجريتُ معه حوارًا موجزًا على السلَّم.

قال لي: «هل يمكنني التحدثُ إليك؟ هل يمكنني الدخولُ لدقيقة؟» كانت نبرةُ صوته ثابتةً، ويقبض بيده على ذراعي.

فتحتُ الباب وأدخلتُه. ولم يلبث أن تخطَّى عتبة الباب حتى دلَف مسرعًا إلى غرفتي الخلفية، حيث اعتدتُ أن أدخن وأكتب خطاباتي، ثم اندفع عائدًا.

سألني بانفعال شديد: «هل الباب موصدٌ؟» ثم أغلق سلسلة الباب بيده.

قال بتواضع: «أنا آسف بشدة، هذا اقتحامٌ شديد للحرية، لكنك بدوتَ من نوعية الرجال الذين يتفهمون. لقد كنتَ ببالي طوال هذا الأسبوع حين ساءت الأوضاع. اسمع، هلَّا أسديتَ إليَّ معروفًا؟»

قلتُ له: «سأستمع إليك، هذا كلُّ ما يمكنني أن أعدك به.» كان القلق قد بدأ يعتريني من سلوك هذا الرجل الضئيل العصبي.

كانت توجد صينية عليها مشروباتٌ على طاولة بجواره، فملأ لنفسه منها كأسًا من الويسكي بالصودا، شربها على ثلاث دُفعات، وأحدث شرخًا في الكأس وهو يضعها من يده.

قال: «عذرًا، فأنا مهزوز بعض الشيء هذه الليلة؛ فقد كان من المفترض بي في هذه اللحظة أن أكون ميتًا.»

جلستُ إلى مقعد ذي ذراعين وأشعلت غليوني.

سألته: «ما شعورك الآن؟» كنتُ متأكدًا من أنه كان عليَّ التعامل مع رجل مجنون.

ارتسمتِ ابتسامةٌ خفيفة على وجهه الذي كان يبدو عليه الإرهاق. «لم يُصبني الجنون بعد. اسمع يا سيدي، لقد كنت أراقبك، وأحسبك نزيلًا هادئ الأعصاب، وأحسبك أيضًا رجلًا صادقًا، ولا تخشى المخاطرة، ولهذا سأوليك ثقتي؛ فأنا بحاجة إلى المساعدة أكثر من أي إنسان على الإطلاق، وأريد أن أعرف إن كان بوسعي الاعتماد عليك.»

قلتُ: «تحدَّث بما عندك، وسأخبرك.»

بدا أنه يستجمع شتات نفسه ليبذل جهدًا هائلًا، ثم بدأ في سرد أغرب هُراء سمعتُه على الإطلاق. لم أستوعب حديثه في البداية، وكان عليَّ أن أتوقَّف وأطرح عليه بعض الأسئلة. ولكن هذا ملخص ما قاله:

كان أمريكيًّا من كنتاكي، وبعد انتهائه من دراسته الجامعية، ولأنه كان ميسورَ الحال، شرع في رؤية العالم. كتب بعض المؤلفات، وعمل مراسلًا حربيًّا لصحيفة في شيكاغو، وأمضى عامًا أو اثنين في جنوب شرق أوروبا. استجمعتُ من حديثه أنه كان على علم جيد باللغات، وأنه أصبح ملمًّا إلمامًا جيدًا بالمجتمع في تلك المناطق. كان يتحدث بألفة عن الكثير من الأسماء التي أتذكر أني قد رأيتُها في الصحف الإخبارية.

أخبرني أنه مارس السياسة، في البداية بدافع الاهتمام بها، ثم لأنه لم يكن له حيلة في ذلك. أدركتُ من كلامه أنه شخص ذكي لا يَكِلُّ، أراد دومًا أن يصل إلى جذور الأشياء؛ فتمادى به الحال أكثر مما أراد.

إنني أسرد عليكم ما قاله لي بالإضافة إلى ما استطعتُ استنتاجَه؛ ففي الخلفية بعيدًا عن جميع الحكومات والجيوش ثمة حركةٌ خفية كبيرة تحدث، يُديرها أشخاصٌ في غاية الخطورة. كان قد توصَّل إليها بالصدفة؛ وقد بهرتْهُ؛ فتمادى فيها حتى قُبض عليه. استخلصتُ أن معظم الأشخاص المنخرطين فيها كانوا من الأناركيين المثقفين الناقمين على السلطة الذين يُشعلون الثورات، لكن بالإضافة إليهم كان يوجد أيضًا ممولون كانوا يشاركون من أجل المال فقط؛ إذ يمكن لشخص بارع أن يجنيَ أرباحًا كبيرة من وراء سوق منهار، وكان من مصلحة كلتا الفئتين إغراقُ أوروبا في التناحر.

أخبرني ببعض الأمور الغريبة التي فسرتِ الكثيرَ من الأشياء التي حيَّرتني والتي حدثتْ في حرب البلقان؛ كيف لدولة واحدة أن تُصبحَ في الصدارة فجأة، ولماذا كانت التحالفات تُقام وتُفسخ، والسبب وراء اختفاء أشخاص محدَّدين، ومن أين جاءت بذور الحرب. كان الهدف من المؤامرة بأكملها هو إشعالَ الصراع بين روسيا وألمانيا.

حين سألتُه عن السبب قال لي إن مجموعة الأناركيين اعتقدوا أن هذا سيعطيهم فرصتهم؛ فكلُّ شيء سيصبح داخل بوتقة الانصهار، وكانوا يتطلعون لرؤية عالم جديد يظهر؛ فقد يجمع الرأسماليون أموالًا طائلة، ويجنون ثروات من شراء الحطام؛ فرأس المال، على حدِّ قوله، بلا ضمير ولا وطن. وقد كان اليهود وراء كل هذا، واليهود كانوا يكرهون روسيا أكثرَ من كراهيتهم لأي شيء آخر في العالم.

صاح قائلًا: «هل تتعجب من هذا؟ لقد تعرضوا للاضطهاد لأكثر من ثلاثمائة عام، وهذا هو وقت الردِّ على المذابح المدبرة؛ فاليهود منتشرون في كل مكان، لكن عليك أن تنزلَ

إلى العالم السرِّي لتعثر عليهم. فلتنظر مثلًا إلى أيٍّ من الشركات الألمانية. إذا كانت لديك تعاملاتٌ مع هذه، أي من هذه الشركات، فأول شخص ستقابله هو شاب أنيق ألماني الأصل يتحدث بلغة إنجليزية متكلفة، ومع ذلك ليس له أيُّ دور فعال. وإذا كان حجم عملك كبيرًا، فإنك ستتخطاه وستجد وستفاليًّا ذا فكٍّ بارز وحاجبَين معقودَين وأخلاق خنزير. إنه رجلُ الأعمال الألماني الذي يجعل القشعريرة تسري في جسدك الإنجليزي. أما إذا كان عملك من النوع الرفيع ويُفترض بك الوصولُ إلى الرئيس الفعلي، فعلى الأرجح ستلتقي بيهودي أبيض الوجه ضئيل الحجم في كرسي للمُقْعَدين، وله عينان تُشبهان عينَي الحية المجلجِلة. أجل يا سيدي، هذا هو الرجل الذي يحكم العالم في وقتنا هذا، وهو يُوجِّه سكِّينَه في وجه الإمبراطورية الروسية؛ لأن عمَّتَه تعرَّضتْ لإهانة بالغة، ووالدَه جُلد في موضعٍ ناءٍ على نهر الفولجا.»

لم يسعْني إلا أن أقول إنه يبدو أن الأناركيين اليهود قد تعرضوا للإهمال بعض الشيء.

قال: «أجل، وكلَّا؛ فقد حققوا بعض المكاسب، لكن حققوا شيئًا أكبر بكثير من المال، شيئًا لا يمكن شراؤه؛ وهو الغرائز القتالية الأساسية القديمة للإنسان. إن كنت ستتعرض للقتل فإنك ستخترع رايةً أو بلدًا من نوعٍ ما لتحارب من أجله، وإذا كُتِبَت لك النجاةُ فإنك ستحبُّ هذا الشيء كثيرًا. لقد وجد هؤلاء الجنودُ الشياطين الحمقى شيئًا يهتمون به، وذلك أحبط الخطة المُحكمة الموضوعة في برلين وفيينا. إلا أن أصدقائي لم يُخْرِجوا آخرَ ما في جَعبتهم بعدُ لبُعد نظرِهم؛ فما زالوا يُخفون ورقة رابحة، وإن لم أستطعِ الحفاظ على حياتي لمدة شهر فسيستخدمونها.»

بادرتُه بالحديث: «لكني اعتقدتُ أنك ميت.»

قال باللاتينية وهو يبتسم: «الموت هو بوابة الحياة.» (تعرفت على الاقتباس على الفور؛ فقد كان يُمثل تقريبًا كلَّ ما أعرف من اللغة اللاتينية.) واصل حديثه، قائلًا: «سآتي على ذكر هذا، لكن كان لزامًا عليَّ أن أُطلعك على كثير من الأشياء أولًا. إذا كنتَ تقرأ الصحف، فأعتقد أنك تعرف الاسم قسطنطين كارولِيدس، أليس كذلك؟»

حينئذٍ اعتدلتُ في جلستي؛ فقد كنتُ أقرأ الكثيرَ عن هذه الشخصية عصرَ هذا اليوم تحديدًا.

«إنه الرجل الذي حطَّم ألاعيبهم كافة. إنه العقل الذكي الوحيد في المشهد بأكمله، ويتصادف أيضًا أنه رجل نزيه؛ وعليه فقد كان مستهدفًا في الأشهر الاثني عشر الماضية. اكتشفتُ ذلك ولم يكن الأمر صعبًا، فيمكن لأي أبله أن يُخمِّن بنفس القدر. إلا أنني اكتشفتُ أيضًا أنهم سينالون منه، وكانت هذه المعلومة مميتة؛ ولهذا كان يجب أن أموت.»

تناول مشروبًا آخر، وخلطتُه له بنفسي؛ إذ بدأ اهتمامي يزيد بما يقوله هذا الرجل.

«لا يمكنهم أن ينالوا منه داخل أرض وطنه؛ لأن لديه حارسًا شخصيًّا من إبيروس بإمكانه أن يسلخَهم أحياءً. إلا أنه في الخامس عشر من شهر يونيو سيأتي إلى هذه المدينة؛ فقد اعتادت وزارة الخارجية البريطانية على إقامة حفلات شاي دولية، ومن المزمع إقامةُ أكبر هذه الحفلات في ذلك التاريخ. ويُعتبر كاروليدس الضيف الرئيسي في هذا الحفل، وإن استطاع أصدقائي تحقيقَ مخططهم فإنه لن يعود أبدًا إلى بني وطنه الذين يحبونه.»

قلتُ له: «الأمر بسيط للغاية، على أي حال. يمكنك تحذيرُه وحثُّه على البقاء في بلده.»

سألني بحدَّة: «وألعب اللعبة بقواعدهم؟ إن لم يأتِ، فعندئذٍ يكونون قد فازوا؛ إذ إنه الشخص الوحيد القادر على تصويب الوضع المتشابك. وإذا تلقَّت حكومتُه تحذيرًا فإنه لن يحضر؛ فهو لا يعلم حجم الخطر الذي سوف يكون قائمًا في الخامس عشر من يونيو.»

قلتُ له: «ماذا عن الحكومة البريطانية؟ فهم لن يسمحوا باغتيال ضيوفهم. أعطهم المعلومة، وسيتخذون المزيد من التدابير الوقائية.»

«لا جدوى من هذا. فربما يملئون المدينة بمخبرين يرتدون ملابس مدنيَّة، ويضاعفون أعداد ضباط الشرطة ومع ذلك يظلُّ قسطنطين رجلًا محكومًا عليه بالهلاك؛ فأصدقائي لا يُدبِّرون هذه المكيدة هباءً، فهم يريدون التخلصَ منه في حدثٍ كبير، تكون كلُّ الأعين في أوروبا مسلطةً عليه. سيكون مقتلُه على يد شخص نمساوي، وسيتوفر الكثيرُ من الأدلة التي تُظهر تآمرَ الشخصيات الكبرى في فيينا وبرلين. بالطبع ستكون هذه كذبة شيطانية، لكن الوضع سيبدو للعالم قاتمًا بما فيه الكفاية. أنا لا أتحدث بهُراء، يا صديقي؛ إذ يتصادف معرفتي بجميع تفاصيل هذا المخطط الجهنمي، ويمكنني أن أقول لك إنه سيكون أكثرَ عمل خسيس مكتمل منذ المؤامرات التي حِيكت في عهد آل بورجيا. إلا أن هذا المخطط لن يُفْلِح في حال وجود رجلٍ مُعَيَّنٍ عليمٍ بخبايا الأمور على قيد الحياة هنا في لندن في الخامس عشر من يونيو. وهذا الرجل سيكون خادمَك فرانكلين بي سكادر.»

كنتُ قد بدأت أُعجَب بالرجل الضئيل البِنية. انغلق فكُّه مثل مصيدة فئران، وتأجَّجت عيناه الثاقبتان بلهيب الصراع. لو كان يخدعني بقصة مختلقة فقد نجح تمامًا في إقناعي بها.

سألتُه: «كيف اكتشفتَ هذه القصة؟»

«حصلتُ على أول معلومة في نُزلٍ على بحيرة أخينسي في تيرول. وجعلني ذلك أشرع في الاستقصاء، وجمعتُ باقي أدلتي الأخرى من محل فراء في حي جاليسي في بودا، ومن إحدى

حانات سترينجرز كلوب في فيينا، ومن محل صغير لبيع الكتب في شارع راكنيتسشتراسيه في لَيْبِسِك. أنهيتُ جمْعَ أدلتي منذ عشرة أيام في باريس. لا يمكنني إطلاعُك على التفاصيل الآن، لأنها قصة طويلة. حين تأكدتُ تمامًا من الأمر في ذهني، رأيت أنَّ عليَّ أن أختفيَ عن الأنظار، ووصلتُ إلى هذه المدينة بعد طواف هائل غريب؛ فقد تركتُ باريس في هيئة شاب فرنسي أمريكي متأنق، وأبحرتُ من هامبورج على أني تاجر ألماس يهودي. وفي النرويج، كنت طالبًا إنجليزيًّا من إبسن يجمع موادَّ من أجل محاضراته، ولكن حين تركتُ برجن كنتُ سينمائيًّا أصوِّر أفلامًا خاصة عن التزحلق على الجليد. وجئتُ من ليث إلى هنا وبحوزتي الكثيرُ من المعلومات والقصص التي كنتُ سأقدِّمها للصحف في لندن. وحتى يوم أمس كنتُ أظن أنني تمكنت من إخفاء أثري، وكنت أشعر بسعادة غامرة. ثم ...»

بدا أنَّ تذكُّرَ الأمرِ أزعجه، فازدرد مزيدًا من الويسكي.

«ثم رأيتُ رجلًا يقف في الشارع خارج هذا المبنى. اعتدتُ أن أبقى داخل غرفتي طوال اليوم، ولا أخرج متسلِّلًا إلا بعد أن يحلَّ الظلامُ لساعة أو ساعتين. راقبتُه لبعض الوقت من نافذتي، واعتقدتُ أني تبيَّنتُه؛ فقد دخل وتحدَّث مع البواب. وحين عدتُ من نزهتي ليلة أمس وجدتُ بطاقةً في صندوق خطاباتي. كانت تحمل اسمَ آخرِ رجل أريد أن ألقاه على وجه هذه الأرض.»

أعتقدُ أن النظرة التي بدتْ في عينَي رفيقي، والرعبَ الجليَّ على وجهه، قد أكملَا اقتناعي بصدقه. احتدَّتْ نبرةُ صوتي بعضَ الشيء وأنا أسأله عما فعل بعد ذلك.

«أدركتُ أني كنتُ محاصرًا تمامًا مثل سمك مملَّح معلَّب، وأنه لا يوجد إلا سبيلٌ واحد للهرب؛ لا بد لي أن أموت. فإذا علم مَن يلاحقونني أني قد متُّ فسيخلدون إلى السكينة مرةً أخرى.»

«كيف نجحت في ذلك؟»

«أخبرتُ الرجل الذي يخدمني بأني أشعر بتوعُّك شديد، وحاولتُ أن أبدوَ كمن يُحْتَضَر. لم يكن ذلك أمرًا صعبًا؛ فأنا أُجيد التظاهر. بعد ذلك أحضرتُ جثة؛ فيمكنك دومًا الحصولُ على جثة في لندن إن كنتَ تعلم المكان الذي تذهب إليه من أجل هذا. جلبتُها في صندوق على عربة لها أربع عجلات، وكان لا بد لي من الحصول على المساعدة من أجل صعود السلَّم بها إلى غرفتي. كان لا بد لي من تجميع بعض الأدلة من أجل التحري. ذهبتُ إلى السرير وأخبرتُ خادمي بأن يخلطَ لي شرابًا منوِّمًا، وأخبرتُه أن ينصرف. أراد أن يُحضرَ لي طبيبًا، لكني شتمتُ قليلًا وقلتُ له إني لا أطيق المتطفلين. حين تركني وحدي بدأتُ في تزييف

ملامح هذه الجثة. كانت لرجل في مثل حجم جسمي، واستنتجتُ أنه قد تُوفي إثر الإفراط في تناول المشروبات الكحولية؛ ولهذا وضعتُ كميات من الشراب في أرجاء المكان. كان فكُّه نقطةَ الضعف في عملية المشابهة بينه وبيني؛ ولهذا فجَّرتُه بالمسدس. أعتقد أن أحدًا ما في الغد سيُقسم بأنه قد سمع صوتَ إطلاق نار، ولكن لا يوجد أيُّ جيران في طابقي؛ ولهذا خمَّنتُ أن بوسعي أن آخذَ هذه المخاطرة. وعليه تركتُ الجثة في السرير مرتديةً ملابسَ نومي، ومسدسًا ملقًى على أغطية السرير، وافتعلتُ فوضى عارمة في أرجاء المكان. بعدها ارتديتُ ملابسَ كنتُ أحتفظ بها من أجل حالات الطوارئ. لم أجرؤْ على حلْق ذقني خوفًا من ترك أيِّ أثر، بالإضافة إلى أن محاولتي للنزول إلى الشارع لم تكن لها أي فائدة. كنتُ أفكر فيكَ طوال اليوم، وبدا لي أنه ليس أمامي إلا اللجوءُ إليك. ظللت أراقبُ من نافذتي حتى رأيتكَ عائدًا إلى البيت، ثم نزلتُ متسلِّلًا على السُّلَّم لألتقيَ بك ... والآن يا سيدي أعتقدُ أنك تعرفُ عن هذا الأمرِ بقدْري تمامًا.»

جلس يَطرِفُ بعينَيه مثل البومة، وهو يرتعدُ من التوتر، ومع ذلك كانت تبدو عليه أماراتُ تصميمٍ شديد. بحلول هذا الوقت كنتُ مقتنعًا اقتناعًا كبيرًا بأنه كان صادقًا معي. كانت هذه أغربَ أنواع القصص على الإطلاق، ولكني سمعتُ طوال حياتي الكثيرَ من القصص العصية على التصديق التي تبيَّن صدْقُها، واعتدتُ أن أحكمَ على البشر وليس على القصة. فلو كان هدفُه الدخولَ إلى منزلي، ثم قتلي، لكان اخترع حكايةً أبسط من هذه.

قلتُ له: «أعطني مفتاحك، وسأُلقي نظرة على الجثة. اعذرني في حذري، ولكن عليَّ التأكد قليلًا من كلامك قدرَ المستطاع.»

هزَّ رأسَه في حزن، وقال: «اعتقدتُ أنك ستطلب هذا، لكنه ليس معي. إنه في سلسلة مفاتيحي على طاولة الزينة. كان لا بد لي من تركه هناك؛ إذ لم أستطع ترك أي أدلة تُولد الشكوك؛ فالجماعة التي تلاحقني من أهل هذا البلد ولهم أعينٌ يقظة. عليك أن تثقَ في كلامي هذه الليلة، وغدًا ستحصل على إثبات يؤكد لك موضوعَ الجثة بما فيه الكفاية.»

فكرتُ للحظة أو اثنتين، ثم قلتُ له: «حسنًا، سأثقُ بك هذه الليلة. سأوصدُ عليك البابَ في هذه الغرفة، وسأحتفظ بالمفتاح. اسمح لي فقط بكلمة واحدة يا سيد سكادر، أعتقد أنك صادق، ولكن إن لم تكن كذلك فعليَّ أن أحذِّرَك أنني أحمل سلاحًا ناريًّا وأُجيد استخدامَه.»

قال: «بالتأكيد.» وقفز واقفًا في خفَّة. «لم أتشرفْ بمعرفة اسمك يا سيدي، لكن دعْني أَقُلْ لك إنك رجل طيب القلب. وسأكون شاكرًا لك للغاية إن أمكن أن تُعيرَني شفرةَ حلاقة.»

أخذتُه إلى غرفة نومي وتركتُه على حريته فيها، وبعد نصف ساعة خرج منها شخصٌ بالكاد تعرفتُ عليه. فباستثناء عينَيه الثاقبتَين والتوَّاقتَين تغيَّر كلُّ شيء آخر في مظهره. أصبح حليقَ الوجه، وفرق شعره من المنتصف، وهذَّب حاجبَيه. بالإضافة إلى هذا، كان يقف وقفة عسكرية، وكان نموذجًا لضابط بريطاني أمضى وقتًا طويلًا في الهند، حتى في لون بشرته البُنِّيِّ. كان يضع أيضًا نظارة مفردة تلتصق بعينه، واختفى تمامًا من كلامه كلُّ أثرٍ للكنته الأمريكية.

تمتمتُ قائلًا: «قبَّعتي يا سيد سكادر!»

صحَّح لي كلامي: «لستُ السيدَ سكادر، وإنما الكابتن ثيوفيلوس ديجبي، من لواء الجوركا الأربعين، وحاليًّا في إجازة في الوطن، وسأكون شاكرًا لك إن أمكنك تذكُّرُ هذا يا سيدي.»

أعددتُ له سريرًا في غرفة التدخين وذهبتُ نحو أريكتي، وأنا أشعر بالسعادة أكثرَ مما شعرتُ طوال الشهر الماضي. إن أمورًا مثيرة تحدث أحيانًا، حتى في هذه المدينة الموحشة.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي على صوت خادمي، بادوك، وهو يُحدِث صخبًا شديدًا أمام باب غرفة التدخين. كان بادوك شخصًا صنعتُ فيه معروفًا وأخرجتُه من سيلاكوي في زيمبابوي، وجعلتُه يعمل خادمًا لي بمجرد وصولي إلى إنجلترا. كان كفرس النهر؛ لا يُغلق فاه أبدًا، ولم يكن يُجيد عملَ الخادم، لكني كنتُ أعلم أن بوسعي الاتكالَ على ولائه.

قلتُ له: «توقَّف عن هذا الصخب يا بادوك؛ فيوجد بالداخل صديقٌ لي هو الكابتن ... الكابتن (لم أستطعْ تذكُّرَ الاسم) ينام بالداخل. هيَّا أحضرْ طعام إفطار لاثنين ثم تعالَ وتحدَّث إليَّ.»

أخبرتُ بادوك قصةً جيدة عن كَون صديقي هذا شخصيةً رفيعةَ المنزلة، وأن أعصابه متعبة من الإفراط في العمل، وأنه يريد الراحةَ التامة والهدوء. وأنه لا ينبغي أن يعلم أحدٌ بوجوده هنا، وإلا ستُحاصره اتصالاتٌ من مكتبه في الهند ومن رئيس الوزراء، وعندها لن يتمكَّنَ من التعافي. يتعيَّن عليَّ القولُ إن سكادر أدَّى دورَه أداءً رائعًا حين أتى لتناول الإفطار؛ فقد حدَّق في بادوك بنظارته، تمامًا مثل ضابط بريطاني، وسأله عن حرب البوير، وغمرني بالحديث عن كثير من الأشياء حول أشخاص خياليين. لم يستطعْ بادوك أبدًا أن يتعلَّم أن يناديَني «سيدي»، لكنه ظلَّ ينادي سكادر «سيدي» كأن حياته تعتمد على هذا.

تركتُه مع الصحيفة وعلبة سجائر، وذهبت إلى المدينة حتى موعد الغداء. وحين عدتُ كانت الجدية تكسو وجهَ عامل المصعد.

قال: «وقع حادثٌ بغيض هذا الصباح يا سيدي. أطلق السيدُ في الشقة رقم ١٥ النارَ على نفسه. لقد أخذوه للتوِّ إلى المشرحة. والشرطة في الأعلى الآن.»

صعدتُ إلى الشقة رقم ١٥ ووجدتُ شرطيَّين ومحققًا منشغلين بفحص المكان. طرحتُ بعض الأسئلة الحمقاء، وسرعان ما طردوني من المكان. بعد ذلك رأيتُ الرجل الذي كان يخدم سكادر وحاول إسعافَه، لكن أمكنني أن أرى أنه لم يشكَّ في شيء على الإطلاق. كان شخصًا بكَّاءً كئيبَ الوجه، وتطلَّب الأمرُ نصفَ كراون لتعزيته.

حضرتُ التحقيق في اليوم التالي، وقدَّم شريكٌ في إحدى دُور النشر دليلًا على أن المتوفَّى كان قد أُحضر له الكثيرُ من المقترحات، وكان وكيلًا، على حدِّ ظنه، لإحدى الشركات الأمريكية. اعتبرتْ هيئةُ التحقيق الأمرَ حالةَ انتحار بسبب عدم سلامة القوى العقلية، وسُلِّمت متعلقاتُه الشخصية القليلة إلى القنصلية الأمريكية لتتعامل معها. أخبرتُ سكادر بشأن كلِّ ما حدث، وأبدى اهتمامًا كبيرًا. قال إنه كان يتمنَّى لو كان بوسعه أن يحضر التحقيق؛ إذ اعتقدَ أنه سيكون ممتعًا كأن يقرأ المرءُ نعيَه بنفسه.

في أول يومين قضاهما معي في هذه الغرفة الخلفية كان هادئًا للغاية. كان يقرأ ويدخن قليلًا، ودوَّن مجموعةً من الملاحظات في دفتر ملاحظات، وفي كل ليلة كنَّا نلعب الشطرنج، الذي كان يهزمني فيه هزيمةً ساحقة. أعتقدُ أنه كان يستعيد صحة أعصابه؛ إذ كان قد مرَّ بوقت عصيب. إلا أنه في اليوم الثالث كان بوسعي أن أرى أنه بدأ يشعر بالضجر. أعدَّ قائمةً بالأيام حتى الخامس عشر من يونيو، وكان يُؤشِّر على كل يوم بقلم رصاص أحمر، ويكتب عليها بعضَ الملاحظات المختصرة. كنتُ أراه واجمًا مستغرقًا في تفكير عميق، وعيناه الحادَّتان شاردتان، وبعد تلك اللحظات من التأمل كانت تبدو عليه كآبة مفرطة.

بعد هذا كان بوسعي أن أرى أنه بدأ يصير منفعلًا مرةً أخرى؛ فكان ينتبه لأي ضوضاء صغيرة، وكان يسألني طوال الوقت إذا ما كان من الممكن الوثوقُ في بادوك. أصبح حادَّ الطبع مرة أو مرتين، واعتذر على هذا، ولم أُوجِّهْ له لومًا؛ فقد كنتُ ألتمسُ له كلَّ الأعذار، نظرًا لما كان يمرُّ به من موقف عصيب.

لم يكن أمنُه الشخصيُّ هو ما يشغله، وإنما نجاح الخطة التي وضعها. كان هذا الرجلُ الضئيلُ الحجم يتسمُ بشجاعة فائقة في جميع تصرفاته، دون أيِّ نقطة ضعف واضحة. وفي إحدى الليالي اتسم بجدية شديدة.

قال: «يا هاناي، أعتقدُ أن عليَّ أن أُطلعَك على المزيد من المعلومات الأكثر عمقًا عن هذا الأمر؛ فأنا أكره أن أذهب دون أن أترك شخصًا آخرَ يتولَّى القتال.» ثم بدأ يُخبرني بالتفصيل ما سمعتُه منه من قبلُ بشكل مبهم.

لم أُعِرْه انتباهًا كبيرًا؛ ففي الحقيقة كنتُ مهتمًّا بمغامراته الشخصية أكثر من سياساته العليا. ارتأيتُ أن كارولیدس وشئونه لم تكن تعنيني؛ ولهذا تركتُ هذا كلَّه له. ونسيتُ تمامًا قدْرًا كبيرًا مما قاله. أتذكَّر أنه كان واضحًا للغاية في أن الخطر المحدق بكارولیدس لن يبدأ في الظهور إلا حين يصل إلى لندن، وأنه سيأتي من أعلى الجهات، حيث لا يوجد مجالٌ للشك. ذكر اسمَ سيدة تُدعى جوليا سزيشيني، وقال إن لها علاقة بهذا الخطر؛ فهي ستكون الطُّعم، بحسب ما فهمتُ، لإبعاد كارولیدس من حماية حرَّاسه. تحدَّث أيضًا عن شخص يُدعى بلاك ستون وعن رجل يتلعثم في كلامه، ووصف على وجه الخصوص شخصًا، كان كلما أتى على ذكره اعترتْه رعشة، هو رجلٌ كبيرُ السن له صوتُ شابٍّ وجفناه يمكن أن يرتخيَا على عينَيه كغمامة الصقر.

تحدَّث كذلك كثيرًا عن الموت، وكان قلقًا إلى حدِّ الموت على نجاح مهمته، لكنه لم يهتمَّ على الإطلاق بحياته. قال: «أعتقدُ أن الأمر أشبه بالخلود إلى النوم حين يكون المرء متعبًا للغاية، ويستيقظ على يوم من أيام الصيف ويشمُّ رائحة العشب آتية من النافذة. اعتدتُ أن أشكر الربَّ على مثل هذه الأيام حين كنتُ في بلدة بلوجراس، وأعتقد أني سأشكره حين أستيقظ في الحياة الأخرى.»

في اليوم التالي كان أكثرَ ابتهاجًا، وظلَّ معظم الوقت يقرأ قصة حياة ستونوول جاكسون. خرجتُ لتناول طعام العشاء مع مهندس تعدين كان عليَّ لقاؤه من أجل عمل، وعدتُ في نحو العاشرة والنصف في الوقت المعتاد للعبنا الشطرنج قبل الخلود إلى النوم.

أذكر أني كنتُ أضع سيجارًا في فمي، وأنا أفتح باب غرفة التدخين. ولم تكن أنوارُ الغرفة مضاءةً، الأمر الذي بدا لي غريبًا. تساءلتُ عما إذا كان سكادر قد خلد للنوم بالفعل.

فتحتُ مفتاح الإضاءة، ولكن لم يكن ثمة أحدٌ في الغرفة. بعدها رأيتُ شيئًا في الركن القَصِيِّ جعلني أُسقِط سيجاري من فمي وتصبَّب عَرقٌ بارد من سائر جسمي.

كان ضيفي ملقًى ممدًّا على ظهره، وسكينٌ طويل مغروسٌ في قلبه مخترقٌ جسدَه إلى الأرض.

الفصل الثاني

# بائع الحليب ينطلق في أسفاره

جلستُ على مقعدٍ ذي ذراعين وشعرتُ بإعياء شديد. ربما ظللتُ هكذا لمدة خمس دقائق، أعقبتْها نوبةٌ من الرعب؛ فالوجهُ المسكين الأبيض المحدق الملقى على الأرض كان يفوق قدرتي على الاحتمال، وتمكنتُ من إحضار مفرش مائدة لتغطيته. بعدها سرتُ مترنِّحًا إلى خزانة، ووجدت زجاجة براندي فشربتُ منها عدة جرعات. لقد رأيتُ من قبل رجالًا يموتون ميتة عنيفة؛ وفي الواقع قتلتُ أنا نفسي بضعة أشخاص في حرب ماتابيلي، لكن هذه الفعلة التي حدثت بدم بارد في منزلي كانت مختلفة. ومع ذلك تمكنتُ من تمالك نفسي. نظرتُ في ساعتي، ورأيت أنها كانت الساعة العاشرة والنصف.

استحوذت عليَّ فكرةٌ، فدرتُ في الشقة أفتِّشها تفتيشًا دقيقًا، فلم أجد فيها أحدًا، ولا أيَّ أثر لأي شخص، ومع ذلك أغلقت النوافذ كلَّها وأوصدتها ووضعت السلسلة على الباب. وفي خلال هذا الوقت كنت قد استعدتُ هدوئي، وصار بوسعي التفكيرُ مرةً أخرى. استغرقتُ نحو ساعة لأستجمعَ ما حدث، ولم أتعجَّل؛ لأنه في حال لم يأتِ القاتل مرةً أخرى، كان أمامي حتى السادسة صباحًا تقريبًا للتأمل فيما جرى.

كان من الواضح تمامًا أنني في ورطة كبيرة. وتبدَّد الآن أيُّ شكٍّ كان يساورني بشأن حقيقة قصة سكادر؛ فبرهانُ صدقه كان يرقد الآن تحت مفرش المائدة؛ فالرجال الذين علموا أنه اطلع على سرِّهم كانوا قد عثروا عليه، واستخدموا الطريقة المثلى للتأكد من صمته. أجل؛ ولكنه ظلَّ داخل شقتي لمدة أربعة أيام، ولا بد أن أعداءه خمَّنوا أنه قد أفضى إليَّ بما يعرفه؛ ولهذا فسأكون أنا ضحيتهم التالية. ربما يحدث هذا في نفس هذه الليلة، أو في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، لكن موتي قد تقرَّر بالفعل. وفجأة خطر لي احتمالٌ آخر؛ بفرض أنني خرجتُ الآن واستدعيتُ الشرطة، أو خلدتُ إلى النوم وتركتُ بادوك يعثر على الجثة ويستدعيهم في الصباح؛ فما هي القصة التي سأُخبرهم بها عن سكادر؟

لقد كذبتُ على بادوك بشأنه، والأمرُ كلُّه بدا مريبًا للغاية؛ فإن أرحتُ ضميري وأخبرتُ الشرطة بكل شيء كان قد أخبرني به، فسيسخرون ببساطة من كلامي. ومن المؤكد أن تهمةَ القتل سوف تُوجَّهُ إليَّ، والأدلة الظرفية قوية بما يكفي ليُحكَم عليَّ بالإعدام؛ فلا يعرفني إلا عددٌ قليل من الناس في إنجلترا، وليس عندي أيُّ صديق حقيقي يمكن أن يتقدَّم ويشهد في صالحي ويُقسِم على خصالي الحسنة. ربما يكون ذلك هو ما يعتمد عليه هؤلاء الأعداءُ السريون. إن لديهم من الذكاء ما يكفي لفعل أيِّ شيء، والسجون الإنجليزية طريقة مثلى للتخلص مني حتى مرور يوم الخامس عشر من يونيو، تمامًا كأنهم غرسوا سكِّينًا في صدري.

إضافةً إلى هذا، إذا سردتُ القصة بأكملها، وبفعل معجزة صدقني الناس، فهذا يعني دخولي في لعبتهم؛ فكارولیدس سيظل في وطنه، وهذا ما يريدونه. بطريقة أو بأخرى كانت رؤيةُ وجه سكادر بعد وفاته قد جعلتني من أشد المؤمنين بفكرته. لقد رحل عن عالمنا، لكنه ائتمنني على سرِّه، ومن واجبي أن أواصل مهمته.

قد يعتقد البعضُ أن هذا تصرُّفٌ سخيف من رجلٍ حياته مهددة بالخطر، لكن هكذا نظرتُ إلى الأمر؛ فأنا رجل عادي، ولستُ أكثرَ شجاعة من أي إنسان آخر، لكني أكره أن يتعرض رجلٌ صالح للهزيمة، وتلك السكين الطويلة لن تكتبَ نهاية سكادر إذا كان بوسعي أن أشارك في اللعبة بدلًا منه.

استغرق مني التفكيرُ في هذا الأمر نحو ساعة أو ساعتين، وبعد هذا الوقت كنت قد توصلتُ إلى قرار؛ لا بد أن أختفيَ بطريقة ما، وأظل مختفيًا حتى نهاية الأسبوع الثاني من شهر يونيو. بعد هذا، لا بد أن أعثرَ على طريقة للتواصل مع رجال الحكومة وأُخبرَهم بما أخبرني به سكادر. تمنيتُ لو أنه أخبرني بالمزيد، ولو أني استمعتُ باهتمام أكبر للقدر القليل الذي أخبرني به. لم أكن أعرف شيئًا سوى الحقائق المجردة. كان ثمة مخاطرةٌ كبيرة أنه، حتى إذا استطعتُ التغلبَ على الأخطار الأخرى، قد لا يصدقني أحدٌ في النهاية. لا بد لي من أن أُجازف، وآملُ أن يحدث شيءٌ ما من شأنه أن يؤكد قصتي في أعين الحكومة.

كانت مهمتي الأولى أن أُواصلَ الاختفاء طوال الأسابيع الثلاثة المقبلة. كنَّا حينئذٍ في الرابع والعشرين من مايو، وكان هذا يعني أن عليَّ الاختباءَ لمدة عشرين يومًا قبل أن يكون بوسعي أن أغامرَ بالتواصل مع السلطات. خمَّنتُ أن مجموعتين من الناس ستبحثان عني؛ أعداء سكادر لإبادتي من الوجود، والشرطة التي ستريدني من أجل مقتل سكادر.

ستكون مطاردة محتدمة، ومن الغريب أن التصور أشعرني بالارتياح. لقد كنتُ في حالة من الخمول لوقت طويل، حتى إني صرتُ أرحِّبُ بأي فرصة للنشاط. حين اضطررتُ للجلوس مع هذه الجثة وحدي في انتظار قدري، لم أكن أكثرَ من دودة مسحوقة، لكن إن كانت نجاتي تعتمد على إعمال عقلي فإني مستعدٌّ لأن أسعد بهذه المغامرة.

الفكرة التالية التي خطرتْ على بالي كانت ما إذا كان في حوزة سكادر أيُّ أوراق تُطلعني على هذه المسألة على نحو أفضل. سحبتُ مفرشَ الطاولة وفتشتُ في جيوبه، فلم يَعُدْ لديَّ أي خوف من الجثة. كان وجهه هادئًا للغاية بالنسبة إلى رجل قُتل في لحظة. لم أجد شيئًا في جيب صدريته، ولم أجد إلا بضعَ عملات معدنية ومبسمًا في صدريته. كان في جيوب بنطاله مديةٌ صغيرة وبعضُ العملات الفضية، وكان جيبُ سترته الجانبي يحتوي على علبة سيجار قديمة من جلد التمساح. لم يكن ثمة أثرٌ للدفتر الصغير الأسود الذي كنتُ قد رأيتُه يكتب فيه الملاحظات. لا بد أن قاتله قد أخذه معه.

إلا أنني حين نظرتُ إلى الأعلى بعد انتهائي من مهمتي رأيتُ بعض الأدراج في طاولة الكتابة مفتوحةً. لم يكن سكادر ليتركَها أبدًا على هذه الحال؛ إذ كان أكثرَ رجل منظم على الإطلاق. لا بد أن أحدًا كان يبحث عن شيء ما، وربما كان هذا الدفتر الصغير.

جُلْتُ في الشقة ووجدت أن كلَّ شيء قد تعرَّض لتفتيش دقيق؛ داخل الكتب والأدراج والخزانات والصناديق وحتى جيوب الملابس في خزانة ملابسي، والمائدة في غرفة الطعام. لم أجد أيَّ أثر لدفتر الملاحظات، على الأرجح عثر عليه العدو، لكنهم لم يعثروا عليه بحوزة جثمان سكادر.

بعد هذا أخرجتُ أطلسَ ونظرتُ في خريطة كبيرة للجزر البريطانية. كانت فكرتي أن أذهب إلى منطقة نائية تكون فيها حرفةُ الرعي التي أُجيدها ذات نفع لي؛ لأني إن ذهبتُ إلى إحدى المدن فسأكون مثلَ فأر في مصيدة. رأيت أن اسكتلندا ستكون أفضلَ مكان؛ وهذا لأن أهلي كانوا من أصل اسكتلندي، ويمكنني التخفِّي في أي مكان بصفتي رجلًا اسكتلنديًّا عاديًّا. في البداية راودتني فكرةٌ غير مكتملة أن أتخفَّى في هيئة سائح ألماني؛ إذ كان لوالدي شركاء ألمان، وقد نشأتُ وأنا أتحدث اللغة الألمانية بطلاقة، ناهيك عن إمضائي لثلاث سنوات في التنقيب عن النحاس في منطقة دامارالاند الألمانية. إلا أنني قدَّرتُ أن اتخاذي هوية اسكتلندية سيكون أقلَّ إثارة للشكوك، وأقل تماشيًا مع ما قد تعرفه الشرطة عن ماضيَّ. اعتزمتُ الذهاب إلى منطقة جالوي إذ رأيتُها أفضل مكان

يمكنني الذهابُ إليه؛ فقد كان المكانَ الأقرب في اسكتلندا للحياة البرية، بقدر ما كان بوسعي أن أُخمِّن، وبالنظر إلى الخريطة لم يكن مكانًا مكدَّسًا بالسكان.

أنبأني بحثٌ في دليل برادشو أن قطارًا يغادر محطة سانت بانكراس في السابعة وعشر دقائق، ويصل بي إلى أي محطة من محطات منطقة جالوي في وقت متأخر من بعد الظهيرة. كان هذا جيدًا بما يكفي، لكن المسألة الأهم كانت تتمثل في كيفية الوصول إلى محطة سانت بانكراس؛ إذ كنتُ متأكدًا من أن أصدقاء سكادر سيكونون في الخارج يراقبون. حيَّرني هذا لبعض الوقت؛ ثم أتاني إلهامٌ، وعليه ذهبتُ إلى السرير ونمتُ نومًا مضطربًا لساعتين.

نهضتُ في تمام الرابعة صباحًا وفتحتُ شباك غرفة نومي. كان الضوء الخافت لنهار يومٍ صيفيٍّ صافٍ يغمر صفحاتِ السماء، وقد بدأتِ العصافير تُغَرِّد. انتابني تغيير مفاجئ في كل مشاعري، وشعرتُ بأني شخصٌ أحمق لعين. كان لديَّ ميلٌ إلى ترك الأمور تمضي، وثقة في أن الشرطة البريطانية ستنظر نظرةً عقلانية لحالتي. إلا أنني حين أعدتُ استعراض الموقف لم أجد حُججًا تُناهض قراري الذي كنت قد اتخذتُه الليلة الماضية، وعليه قررتُ بامتعاض المضيَّ قُدُمًا في تنفيذ خطتي. لم يكن لديَّ أيُّ شعور بالخوف من شيء محدَّد؛ فكلُّ ما في الأمر أنني كنتُ لا أرغب في البحث عن المتاعب؛ إن كنتم تفهمون ما أقصده.

انتقيتُ بِذْلةً مستعملة من الصوف الخشن، وحذاءً قويًّا طويل الرقبة للمهمات الشاقة، وقميصًا صوفيًّا ذا ياقة. وحشرتُ في جيوبي قميصًا إضافيًّا وقبعةً من القماش، وبعض المناديل وفرشاة أسنان. كنتُ قد سحبتُ مبلغًا لا بأس به من القطع الذهبية من البنك قبل هذا بيومين، في حال ما إذا أراد سكادر بعضَ المال، وأخذتُ خمسين جنيهًا ذهبيًّا ووضعتُهم في حزام كنتُ قد أحضرتُه معي من روديسيا. كان هذا تقريبًا كلَّ ما أردتُه. بعد هذا استحممتُ وشذَّبتُ شاربي، الذي كان طويلًا ومسترسلًا، وجعلته قصيرًا مهذَّبًا.

حانت الآن الخطوةُ التالية. اعتاد بادوك أن يصل في تمام الساعة السابعة والنصف، وأن يدخل إلى المنزل مستخدمًا مفتاحَ القفل. إلا أنه في حوالي السابعة إلا عشرين دقيقة تقريبًا، كما كنتُ أعلم من تجربتي المريرة، كان بائع الحليب يظهر مُحدِثًا جلبةً هائلة بأوعية اللبن، ويترك لي حصَّتي أمام باب شقتي. كنت قد رأيتُ بائع الحليب هذا بضعَ مرات حين كنت أخرج في نزهة مبكرة على الأقدام. كان شابًّا في نحو طولي تقريبًا، وكان له شاربٌ غير مشذَّب، ويرتدي معطفًا أبيض اللون. كنتُ قد وضعتُ كلَّ آمالي عليه.

دخلتُ إلى غرفة التدخين المظلمة حيث كانت أشعةُ ضوء الصباح بدأت تنسلُّ عبر شباك النافذة. هناك أفطرتُ على كوب ويسكي بالصودا وبعضِ قطع البسكويت من الخزانة. حينئذٍ كانت الساعةُ قد شارفتْ على السادسة. وضعتُ غليونًا في جيبي وملأتُ الجراب من إناء التبغ الموضوع على الطاولة بجوار المدفأة.

وأنا أغرسُ أصبعي في التبغ لمستُ شيئًا صلبًا، وأخرجتُ دفتر ملاحظات سكادر الصغير.

بدا لي هذا فألًا حسنًا. رفعتُ قطعة القماش من فوق الجثة وأذهلتْني السكينةُ والوقار اللذان بديَا على وجهه فاقد الحياة. قلت له: «وداعًا يا صديقي العجوز، سأبذل قصارى جهدي من أجلك. تمنَّ لي النجاح، أينما كنت.»

ثم وقفت في الردهة منتظرًا مجيءَ بائع اللبن. كان هذا أسوأَ جزء في الأمر؛ إذ كنتُ أريد بشدة الخروجَ من المنزل. تخطَّى الوقتُ السادسة والنصف، ثم جاءت الساعة السابعة إلا الثلث، لكنه لم يأتِ. لقد اختار الأحمق هذا اليوم من بين الأيام كافة ليتأخر.

عند مرورِ دقيقة واحدة بعد السابعة إلا الربع سمعتُ صوتَ قعقعة أوعية اللبن. فتحتُ الباب الأمامي، فوجدتُ الرجل المنتظر أمامي، يُخرج أوعيتي من مجموعة من الأوعية التي كان يحملها ويصفر من بين أسنانه. قفز جافلًا بعضَ الشيء حين رآني.

قلت له: «ادخل هنا للحظة، أريد أن أتحدث معك.» ثم أدخلتُه إلى غرفة الطعام.

قلت له: «أعتقد أنك رجل ذو روح رياضية إلى حدٍّ ما، وأريد منك أن تُسديَ لي خدمة. أعرني قبَّعتَك ومعطفَك لعشر دقائق فقط، وهاكَ قطعة ذهبية لك.»

اتسعتْ عيناه لدى رؤية القطعة النقدية الذهبية وابتسم ابتسامة واسعة. سألني: «لأي غرض؟»

قلت له: «رهان. ليس لديَّ الوقتُ الكافي لأشرح لك، لكن حتى أفوزَ به لا بد لي أن أصبح بائعَ حليب مدة العشر دقائق التالية. كلُّ ما عليك فعله هو أن تبقى هنا حتى أعود. قد تتأخر بعضَ الشيء عن عملك، لكن أحدًا لن يشتكيَ، وستحصل على هذه العملة.»

قال بسعادة: «حسنًا! لا أريدُ أن أكون أنا مَن يُفسد عليك بعض التسلية. إليك الزي يا سيدي.»

ارتديتُ قبعتَه الزرقاء المسطحة ومِعطفَه الأبيض، وحملت أوعية الحليب، وأغلقت باب شقتي ونزلتُ درجاتِ السلَّم وأنا أصفِّر. أخبرني البواب في أسفل الدرج أن أُغلق فمي، فبدا لي أن تنكُّري كان مقبولًا.

في البداية ظننتُ أنه لا يوجد أحدٌ في الشارع. ثم لمحتُ شرطيًّا على بُعد مائة ياردة، ومتسكعًا مارًّا يجرجر قدميه على الجانب الآخر من الطريق. دفعتْني رغبةٌ ما في أن أرفع عيني لأنظر إلى المنزل المقابل، وهناك رأيت في نافذة الطابق الأول وجهًا. حين مرَّ المتسكع نظر إلى الأعلى، وهُيِّئَ لي أنه قد حدث تبادلُ إشارة.

عبرتُ الشارع، وأنا أصفِّر بمرحٍ وأقلِّد المشية المتبخترة لبائع الحليب. بعد هذا سلكتُ في أول شارع جانبي، ودخلتُ في أول منعطف يسارًا الذي أدَّى بي إلى المرور بقطعة أرض خالية. لم يكن ثمة أحدٌ في الشارع الصغير؛ لذا أسقطتُ أوعية الحليب داخل السور الخشبي لقطعة الأرض ومن ورائها القبعة والمعطف. وما إن وضعتُ قبعتي القماشية حتى جاء ساعي بريد من المنعطف. ألقيتُ عليه تحية الصباح وردَّ عليَّ التحية دون أن يشكَّ في شيء. في هذه اللحظة دقَّت ساعةُ كنيسة قريبة معلنةً السابعة تمامًا.

لم يكن أمامي ثانية لأضيعها؛ فبمجرد وصولي إلى طريق يوستون أطلقتُ ساقيَّ للريح وركضتُ بأسرع ما يمكن. أظهرتِ الساعة عند محطة يوستون أنها السابعة وخمس دقائق. وفي محطة سانت بانكراس لم يكن يوجد لديَّ وقتٌ لشراء تذكرة، ناهيك عن أني لم أكن قد حدَّدتُ وجهتي بعد. أخبرني حمالٌ بالرصيف الذي يوجد عنده القطار، وحين وصلتُ إلى الرصيف رأيت القطار وقد بدأ التحرك بالفعل. كان اثنان من المسئولين في المحطة يسدَّان الطريق، لكني تجاوزتهما وصعِدتُ إلى العربة الأخيرة من القطار.

بعد مرور ثلاث دقائق، ونحن نعبر النفق الشمالي، قابلني حارسٌ غاضب. قطع لي تذكرة حتى محطة نيوتن ستيوارت، وهو الاسم الذي خطر فجأةً على ذهني، واقتادني إلى خارج مقصورة الدرجة الأولى، التي كنتُ قد دخلت فيها، إلى مقصورة الدرجة الثالثة الخاصة بالمدخنين، التي كان بها بحَّارٌ وسيدة بدينة معها طفل. مضى في طريقه متبرمًا وأخبرتُ رفاقي في المقصورة بلهجة اسكتلندية واضحة، وأنا أمسح جبيني، أن اللحاق بالقطارات أمرٌ صعب للغاية. كنت قد تقمَّصتُ دوري بالفعل.

قالت السيدة بمرارة: «يا لوقاحة هذا الحارس! لقد كان بحاجة إلى اسكتلندي ليوقفه عند حدِّه؛ فقد كان يشكو من أن هذه الطفلة ليس معها تذكرةٌ وهي لن تبلغ الرابعة من العمر إلا في أغسطس، وكان يعترض على أن هذا الرجل يبصق.»

صدَّق البحَّارُ على كلامها في عبوس، وبدأتُ أنا حياتي الجديدة في جوٍّ من التمرد على السلطة. ذكَّرتُ نفسي بأنني من أسبوع مضى كنت أرى العالم مكانًا مملًّا.

الفصل الثالث

# مغامرة صاحب النزل الأديب

حظيتُ برحلة هادئة وأنا أسافر صوبَ الشمال في هذا اليوم؛ فقد كان يومًا من أيام شهر مايو ذات الطقس الجميل، وكانت أزهار الزعرور تُغطِّي كلَّ سياج شجري، وتساءلتُ لماذا، حين كنتُ لا أزال رجلًا حرًّا طليقًا، اخترتُ البقاء في لندن ولم أستمتعْ بكل هذا النعيم الريفي. لم أجرؤْ على الذهاب إلى عربة المطعم، لكني حصلتُ على سلة غداء في ليدز وتشاركتُها مع السيدة البدينة. كذلك حصلتُ على الصحيفة الصباحية، وقرأتُ أخبارًا عن الخيول المشاركة في سباق الديربي، وبداية موسم الكريكت، وبضع فقرات عن أن الأوضاع في منطقة البلقان كانت آخذةً في الاستقرار وعن إرسال سرية عسكرية بريطانية إلى مدينة كيل.

حين انتهيتُ من قراءة الصحف أخرجتُ مفكرة سكادر السوداء الصغيرة وبدأتُ أفحصُها. كانت مليئةً للغاية بالملاحظات، التي كانت أغلبها عبارة عن أرقام، على الرغم من ورود اسم بين الحين والآخر. على سبيل المثال عثرتُ على كلمات «هوفجارد» و«لونفيل»، و«أفوكادو» على نحو متكرر، وعلى وجه الخصوص تكررت كلمة «بافيا».

حينئذٍ كنتُ متأكدًا من أن سكادر لم يكن يفعل أيَّ شيء مطلقًا دون سببٍ وجيه، وكنتُ متأكدًا من وجود شيفرة في كل هذا. كنتُ دومًا شغوفًا بهذا الموضوع، بل إنني فعلتُ ذلك قليلًا في الماضي عندما كنتُ ضابطَ استخبارات في خليج ديلاجوا في حرب البوير؛ فأنا لديَّ ذهنٌ مهيأ للشطرنج والألغاز، وكنتُ أعتبر نفسي بارعًا في اكتشاف الشيفرات. بدتْ هذه الشيفرة من النوع الرقمي حيث يُقْصَد بكل مجموعة من الأرقام مجموعة من حروف الأبجدية، لكن يمكن لأي شخص فطِن أن يتوصل إلى مفتاح حلٍّ مثل هذه الشيفرة في غضون ساعة أو ساعتين من العمل، ولم أعتقد أن سكادر كان ليقنع بأي شيء بهذا القدر

من السهولة. ولهذا ركزتُ اهتمامي على الكلمات المكتوبة، لأنه يمكنك عمل شيفرة رقمية جيدة جدًّا إذا كان لديك كلمة مفتاحية تعطيك تسلسل الحروف.

حاولتُ لساعات، لكنَّ أيًّا من الكلمات لم تُقدِّم لي الحل. بعد ذلك غلبني النومُ واستيقظتُ في دومفريس في الوقت المناسب لأَخرج وأستقلَّ قطار جالوي البطيء. كان ثمة رجلٌ على رصيف المحطة لم يعجبْني مظهرُه، لكنه لم يُحدِّق فيَّ قط، وحين لمحتُ نفسي في مِرآة ماكينة أوتوماتيكية لم أستغرب الأمر؛ فمع وجهي البُنِّيِّ اللون، وبِذلتي الصوفية القديمة، ومِشيتي المترهلة كنتُ النموذجَ الأمثل لواحد من مزارعي التلال الذين كانوا يحتشدون في عربات الدرجة الثالثة من القطار.

سافرتُ مع ستة أفراد في جوٍّ معبَّق برائحة الطين وتبغ الغليون. كان هؤلاء قد أتَوا لتوِّهم من السوق الأسبوعي، وكان حديثُهم كلُّه يدور حول الأسعار. سمعتُ أحاديث عن زيادة أعداد الخِراف على طول نهر كارين ومجرى دوش المائي وعددٍ من المجاري المائية الأخرى. تناول أكثرُ من نصف عدد الرجال الكثيرَ من الطعام على الغداء واستمتعوا كثيرًا بشرب الويسكي، لكنهم لم يلاحظوا وجودي على الإطلاق. تقدمنا ببطء داخل أرضٍ بها أودية صغيرة مشجرة، ثم مررْنا بأرض بَراحٍ شاسعة، تلتمع فيها بحيراتٌ، وتلالٌ عالية زرقاء اللون تظهر من جهة الشمال.

في نحو الساعة الخامسة كانت المقصورة قد أصبحت فارغة، وصرتُ وحدي كما كنتُ آمل. نزلتُ من القطار في المحطة التالية، وقد كان مكانًا صغيرًا لم أكدْ ألاحظ اسمه، وكان يقع في قلب المستنقعات. ذكَّرني هذا المكان بواحدة من تلك المحطات الصغيرة المنسية في كارو. كان ثمة ناظرُ محطة كبير السن يحفر في حديقته، ومشى على مهل نحو القطار وهو يحمل مجرافه على كتفه، وتسلَّم طردًا، ثم عاد إلى البطاطس التي كان يرعاها. أخذ مني طفلٌ في العاشرة من عمره تذكرتي، وخرجتُ إلى طريق أبيض كان يمتدُّ فوق المستنقع البُنِّيِّ اللون.

كان مساءً بديعًا ليوم من أيام الربيع؛ إذ كانت كلُّ تلة تبدو واضحة مثل حجر كريم نقي. كان الهواء يَعبَقُ بالرائحة الغريبة والطينية للمستنقعات، لكنه كان منعشًا كالقادم من وسط المحيط، وكان له تأثيرٌ غريب للغاية على روحي. في الواقع شعرتُ بالسعادة والراحة. شعرتُ كأنني صبيٌّ خرج في جولة عطلة ربيعية، وليس رجلًا في السابعة والثلاثين من العمر مطلوبًا من الشرطة. انتابني شعورٌ كالذي اعتدتُ أن أشعر به حين كنت أنطلق في رحلة كبيرة في صباح شديد البرودة في أحد المروج المرتفعة. ولعلكم تصدقونني حين

أُخبركم بأني سرتُ متبخترًا أُصفِّر في الطريق. لم يكن في رأسي أيُّ خطة تفصيلية؛ فكلُّ ما أردتُ فعلَه هو أن أواصل السير في منطقة التلال الريفية المباركة التي تفوح منها رائحةُ الصدق والنزاهة؛ فقد كان كلُّ ميل أسيره يجعلني في حالة مزاجية أفضل.

في مزارع موجودة على جانب الطريق قطعتُ عصًا أتوكأ عليها من شجر البندق، وبعدئذٍ قطعتُ الطريق السريع حتى وصلتُ إلى طريق جانبي يمتدُّ بمحاذاة مجرًى مائي متلاطم في وادٍ ضيق. أدركتُ أني ما زلت بعيدًا عن أيِّ ملاحقة؛ ولذلك كان يمكنني أن أستمتع بعضَ الشيء في هذه الليلة. كان قد مضى بضعُ ساعات على تناولي الطعام، وكان الجوع قد بدأ يشتدُّ بي حين وصلتُ إلى كوخ لأحد رعاة الغنم يقع في مكان منعزل بجوار شلال مائي. كانت سيدةٌ سمراء الوجه تقف عند الباب، وألقتْ عليَّ التحية بالخجل اللطيف لأهالي مثل هذه الأراضي الرحبة. حين سألتُها عن نُزل أقضي فيه الليلة قالت إنها ترحِّب بي إن أردت «السرير في العُلِّيَّة»، وسرعان ما أحضرتْ أمامي وجبةً شهية من اللحم المُقدَّد والبيض، والكعك المسطح، والحليب المكثف الحلو المذاق.

حين خيَّم الليلُ عاد زوجُها من التلال، وكان رجلًا نحيلًا فارعَ الطول، كانت خطوتُه الواحدة تُوازي ثلاثًا من خطوات الأشخاص العاديين. لم يطرحَا عليَّ أيَّ أسئلة؛ إذ كانت أخلاقهما الأفضل من بين جميع قاطني البراري، لكني استطعتُ أن أرى أنهما يتعاملان معي على أني تاجر من نوعٍ ما، وبذلتُ ما في وسعي لكي أؤكدَ نظرتَهما؛ فتحدثتُ كثيرًا عن الماشية، التي لم يكن مضيفي يعرفُ عنها الكثير، وعرفتُ منه قدرًا لا بأس به من المعلومات عن أسواق جالوي المحلية، وخزنتُ هذه المعلومات في ذاكرتي لأستخدمها مستقبلًا. في تمام العاشرة كنت أغفو في مقعدي، واستقبل «السريرُ في العُلِّيَّة» رجلًا منهكًا لم يفتحْ عينيه قط حتى الساعة الخامسة التي شهدتْ رجوعَ الحياة إلى هذا المنزل الأُسَري من جديد.

رفضَا الحصولَ على أيِّ أجر، وفي الساعة السادسة تناولتُ طعام الإفطار وانطلقتُ باتجاه الجنوب مرةً أخرى. كانت فكرتي أن أعودَ إلى خط السكك الحديدية وأبتعدَ محطة أو اثنتين عن المكان الذي نزلتُ فيه يوم أمس ثم أعود أدراجي. فكَّرتُ في أن هذه ستكون أسلمَ طريقة؛ إذ إن الشرطة ستفترض بطبيعة الحال أني أتجه دومًا بعيدًا عن لندن في اتجاه أحد الموانئ الغربية. اعتقدتُ أني ما زلتُ متقدمًا عن الشرطة؛ إذ كان في اعتقادي أنهم سيستغرقون بضعَ ساعات حتى يُلقوا باللوم عليَّ، والمزيد من الساعات الأخرى لتحديد الشخص الذي استقلَّ القطار في محطة سانت بانكراس.

كان الطقسُ في هذا اليوم هو نفسَ الطقس الربيعي النقي والمبهج، وببساطة لم أستطِعْ أن أتظاهرَ بالشعور بالهمِّ. في الواقع كانت معنوياتي أفضلَ مما كانت عليه طوال أشهرٍ مضتْ. سرتُ في طريقي على حافة طويلة للأرض البراح، سائرًا بمحاذاة جانب تلٍّ مرتفعٍ كان الناس يُطلقون عليه اسمَ كيرنزمور أوف فليت. كانت طيورُ الكروان والزقزاق الموجودةُ أعشاشها في المكان تُغرِّد في كل مكان، وتناثرتِ الحُملان على المراعي الخضراء بجوار الجداول المائية. أخذ كلُّ الخمول الذي كنتُ أشعر به في الأشهر الماضية ينسلُّ إلى خارج جسمي، وصرتُ أتحرك كطفل في الرابعة من عمره. من حينٍ إلى آخر كنتُ أمرُّ بمرتفع في الأرض البراح يؤدي إلى وادي نهرٍ صغير، ورأيتُ عن بُعد ميل في حقول الخلنج الدخانَ المتصاعد من قطار.

حين وصلتُ إلى المحطة وجدتُها مناسبةً تمامًا لغرضي؛ فقد كانت الأرض البور ترتفع من حولها ولم تتركْ مساحة إلا لخط سكة حديد واحد، وتحويلة ضيقة، وغرفة انتظار، ومكتب، وكوخ ناظر المحطة، وساحة صغيرة لزراعة الكشمش الشائك وأزهار قرنفل الشاعر. لم يكن يبدو أن ثمة طريقًا يصل إليها من أي مكان، ولزيادة العزلة كانت أمواجُ إحدى البحيرات الجبلية ترتطم بشاطئها الرمادي المليء بالجرانيت على بُعد نحو نصف ميل. انتظرتُ في حقول الخلنج الكثيفة حتى رأيتُ الدخان المتصاعد من قطارٍ يتجه نحو الشرق قادمًا في الأفق. عندئذٍ تقدمتُ إلى مكتب الحجز وقطعتُ تذكرة إلى دومفريس.

لم يكن داخل المقصورة سوى راعي أغنامٍ مسنٍّ مع كلبه، الذي كان حيوانًا ذا عينين رماديتين شعرتُ نحوه بالارتياب. كان الرجل نائمًا، وكانت صحيفة سكوتسمان الصباحية على المسند بجواره؛ فالتقطتُها بلهفة إذ تصورت أنني يمكن أن أعرف منها شيئًا.

كان بها عمودان عن جريمة قتل بورتلاند بليس، كما أُطْلِق عليها. كان خادمي بادوك قد أطلق جرسَ الإنذار وجعل الشرطة تُلقي القبض على بائع الحليب. يا له من مسكين؛ إذ يبدو أنه قد دفع ثمنًا باهظًا نظير العملة الذهبية التي منحتُه إياها؛ لكنه بالنسبة إليَّ كان ثمنًا بخسًا؛ إذ يبدو أنه قد شغل الشرطة عني لمعظم اليوم. وفي قسم آخر الأخبار وجدتُ جزءًا آخر من القصة؛ فقد أُطلق سراح بائع الحليب، بحسب ما قرأتُ، وأما عن المجرم الحقيقي، الذي تلتزم الشرطة بإخفاء هويته، فيُعتقد أنه هرب من لندن عبر أحد خطوط القطار الشمالية. وجدتُ إشارةً موجزة إليَّ بصفتي مالك الشقة. وخمَّنتُ أن الشرطة وضعتْ هذه الملحوظة عن قصد، كوسيلة خرقاء لإقناعي بأنهم لا يشكون بي.

لم أجد شيئًا آخر في الصحيفة؛ لا شيءَ عن السياسة الخارجية أو عن كارولايدس، أو الأشياء التي كان سكادر يهتمُّ بها. وضعتُ الصحيفة ووجدتُ أننا كنا نقترب من المحطة التي نزلت فيها يوم أمس. وجدتُ ناظر المحطة الذي كان يحفر من أجل البطاطس منشغلًا بعملٍ ما؛ إذ كان القطار المتجه نحو الغرب ينتظر مرور قطارِنا، وكان ثلاثة رجال قد نزلوا منه وكانوا يطرحون عليه أسئلةً. افترضتُ أنهم من الشرطة المحلية، وأن سكوتلاند يارد دفعتهم إلى اقتفاء أثري، وأنهم تعقَّبوا تحركاتي حتى هذه التحويلة الصغيرة. جلستُ بعيدًا في الظل أراقبهم بحذر. كان أحدهما يحمل كتابًا ويدوِّن ملاحظات. بدا التبرُّمُ على وجه مُزارع البطاطس العجوز، إلا أن الطفل الذي أخذ مني تذكرتي كان يسترسل في الحديث. نظرتُ المجموعة بأكملها عبر الأرض البور حيث يمتدُّ الطريق الأبيض اللون. أملتُ لو أنهم كانوا سيتعقبون آثاري من هناك.

حين تحركنا من هذه المحطة استيقظ رفيقي. رمقني بنظرة متسائلة، وركلَ كلبَه بوحشية، وتساءل عن المكان الذي كان فيه. من الواضح أنه كان مخمورًا للغاية. قال بأسف شديد: «هذا ما يجنيه المرءُ من الامتناع عن تناول الكحوليات.»

عبَّرتُ عن دهشتي من أنني كان من المفترض أن أجدَه شخصًا ذا عزيمة لا مثيلَ لها.

قال بأسلوب مشاكس: «حسنًا، لكني قويٌّ في عزمي على الامتناع عن المسكرات؛ فقد أخذتُ تعهدًا على نفسي في عيد سانت مارتن الماضي ولم أتجرعْ نقطة ويسكي واحدة منذ ذلك الحين، ولا حتى في ليلة رأس السنة، على الرغم من أنه كان يوجد الكثير من المغريات.»

رفع قدميه على المقعد ودفن رأسَه الكريه الرائحة في المسند.

قال شاكيًا: «وهذا ما أنالُه، رأسًا أكثر سخونة من حرارة نار جهنم، وعينَين زائغتين في يوم السبت.»

سألتُه: «ما الذي فعل هذا بك؟»

«شربتُ كأسًا من البراندي. فلما كنتُ ممتنعًا عن شرب المسكرات، امتنعتُ تمامًا عن الويسكي، لكني ارتشفتُ هذا البراندي، وأعتقد أني لن أكون بخير لأسبوعين.» استحال صوتُه إلى همهمة وغلبه النومُ من جديد.

تمثَّلت خطتي في النزول في إحدى المحطات على طول مسار الخط، لكن القطار فجأةً أعطاني فرصةً أفضل؛ إذ توقَّف عند نهاية قناة تمتدُّ إلى نهرٍ هادر له بوابة ملونة. نظرتُ إلى الخارج ورأيتُ أن نوافذ جميع المقصورات كانت مغلقةً ولم يظهر أيُّ إنسان

في المشهد؛ ولهذا فتحتُ الباب ونزلت بسرعة إلى أشجار البندق المتشابكة التي كانت على حافة خط السكة الحديدية.

كانت الأمور ستسير على ما يُرام لولا ذلك الكلب اللعين؛ فقد انتابه شعورٌ بأني أغادر بأغراض سيده، ولهذا بدأ بالنباح، وما كان منه إلا أن تشبَّث ببنطالي. أيقظ هذا الجميعَ، الذين وقفوا يصيحون أمام باب المقصورة اعتقادًا منهم بأني قد انتحرتُ. زحفتُ بين الشجيرات الكثيفة، ووصلتُ إلى حافة النهر، وتحت غطاء الشجيرات قطعتُ مبتعدًا مائة ياردة أو ما شابه. بعدها نظرتُ من مخبئي إلى الوراء، ورأيتُ الحارس والعديد من المسافرين متجمعين حول المقصورة ذات الباب المفتوح ويُحدِّقون في اتجاهي. لم تكن مغادرتي لتلفتَ انتباه الناس بهذا القدر حتى ولو كنتُ قد غادرتُ ببوق وفرقة من الآلات النحاسية.

لحسن الحظ شتَّتَ راعي الغنم المخمور الانتباهَ؛ فقد تدحرج فجأةً هو وكلبه، الذي كان مربوطًا بحبل حول خصرِه، إلى خارج المقصورة وسقطَا على رأسَيهما على خط السكة الحديدية، وتدحرجَا لمسافة على ضفة النهر باتجاه الماء. وأثناء عملية الإنقاذ التي استتبعت ذلك، عضَّ الكلبُ شخصًا ما؛ إذ استطعتُ سماعَ صوت سِباب شديد. في هذا الوقت كانوا قد نسوني، وحين تجرأتُ، بعد ربع ميل من الزحف، على النظر خلفي، كان القطارُ قد بدأ بالتحرك مرةً أخرى وبدأ يختفي في طريقه.

كنتُ في نصف دائرة فسيحة من الأرض البور، وكان النهرُ البُنِّيُّ اللون هو نصفَ قطرها، وكانت التلال المرتفعة تُشكِّل محيطَ الدائرة الشمالي. لم يكن ثمة علامةٌ أو صوتٌ لإنسان؛ فلم يكن يُسمَع إلا صوتُ تناثر الماء والتغريد الذي لا ينتهي لطيور الكروان. إلا أن الغريب في الأمر أني شعرتُ لأول مرة بالرعب من كوني شخصًا ملاحَقًا. لم أكن أفكِّر في الشرطة، بل في الأناس الآخرين، الذين كانوا يعلمون بعلمي بسرِّ سكادر ولم يكونوا ليتركوني على قيد الحياة. كنتُ متأكدًا من أنهم سيلاحقونني بحماس وحذر لا يعرفهما القانونُ البريطاني، وأنه بمجرد إحكامهم قبضتَهم عليَّ لن أجد أيَّ رحمة.

نظرتُ إلى الخلف، لكني لم أجد شيئًا في المشهد؛ فقد كانت الشمس تومض على القضبان الحديدية وعلى الصخور الرطبة في مجرى النهر، ولم يكن بوسع المرء أن يرى مشهدًا أكثرَ سكينة من هذا في العالم. ومع ذلك بدأتُ أركض. كنت أنحني حين مروري بقناة صغيرة في السبخة، لكني واصلتُ الركض حتى أعماني العَرقُ. لم أتخلص من هذه الحالة حتى وصلتُ إلى حافة الجبل، وألقيتُ بنفسي وأنا ألهث على نتوء جبلي مرتفع فوق مياه النهر البُنِّيِّ اللون.

من هذه الأرض المرتفعة استطعتُ مسحَ الأرض البور بأكملها مباشرةً وصولًا إلى شريط القطار، وإلى جنوبه حيث حلَّت الحقولُ الخضراء محلَّ الخلنج. أنا أتمتعُ بعينَين حادَّتَي النظر كالصقر لكني لم أستطِع رؤية أيِّ شيء يتحرك في هذه المنطقة الريفية بأكملها. بعد هذا نظرتُ جهةَ الشرق إلى ما وراء النتوء الجبلي ورأيتُ مشهدًا طبيعيًّا من نوع آخر؛ أودية مسطحة خضراء بها عددٌ وافر من أشجار التنوب وخطوط باهتة من الغبار التي تدلُّ على وجود طرُق في هذه المنطقة. أخيرًا نظرتُ في سماء شهر مايو الزرقاء، ورأيتُ فيها ما جعل ضرباتِ قلبي تتسارع.

على ارتفاعٍ منخفض جهة الجنوب كانت طائرةٌ أحادية السطح ترتقي إلى السماء. كنتُ متأكدًا كما لو أن أحدًا أخبرني بأن الطائرة كانت تبحث عني، وأنها لم تكن تابعةً للشرطة. طوال ساعة أو ساعتين ظللتُ أراقب من حفرة وسط الخلنج. ظلَّتْ تطير على ارتفاع منخفض على طول قمم التلال، ثم بدأتْ تدور في دوائر ضيقة فوق الوادي الذي كنتُ قد قدِمتُ منه، ثم بدا أنها غيَّرت رأيها، وارتفعتِ ارتفاعًا هائلًا، وطارت بعيدًا عائدةً إلى الجنوب.

لم يرُقَ لي هذا التجسس من الجو، وبدأتُ أفقد إعجابي بالريف الذي اخترتُه ليكون لي ملجأً؛ فتلالُ الخلنج هذه لم تكن تصلح أن تكون مكانًا للاختباء إذا كان أعدائي في السماء، ولا بد لي من العثور على ملاذٍ من نوع آخر. نظرتُ بارتياح أكبر إلى البلدة الخضراء التي تقع وراء النتوء الجبلي؛ فهناك سأجد أشجارًا ومنازلَ من الحجارة. في نحو السادسة في المساء خرجتُ من الأرض البور إلى الشريط الأبيض للطريق الذي امتدَّ عبر الوادي الضيق لنُهير في أرض منخفضة. مع متابعتي السيرَ فيه، بدأتِ الحقولُ تنحني، وتحوَّل الوادي الصغير إلى سهل مرتفع واسع، وكنتُ قد وصلتُ حينئذٍ إلى شِعْبٍ حيث كان منزل منعزل يصدر منه الدخانُ في الشفق. انعطف الطريقُ فوق جسر، وكان شابٌّ يتكئ على سوره.

كان يدخن غليونًا طينيًّا طويلًا ويُراقب المياه بعينيه اللتين يلبس عليهما نظارة. كان يحمل في يده اليسرى كتابًا صغيرًا يُعلِّم فيه بإصبعه على المكان الذي وقف عنده، ويُكرِّر ببطء:

أرأيت «الغريفون» كيف انطلق في البرية ضاربًا بجناحَيه فوق التلال وأحراج الوديان في أعقاب «أريماسبي» («الفردوس المفقود»، الكتاب الثاني، ترجمة محمد عناني).

قفز ملتفًّا في الهواء حين سمع وقْعَ أقدامي على حجارة الطريق، ورأيتُ وجهًا طفوليًّا وسيمًا مسفوعًا من الشمس.

قال برزانة: «طاب مساؤك، يا لها من ليلة رائعة للتنزُّه في الطريق.»

شممتُ رائحةَ الدخان المتصاعد من الفحم الخشي ورائحةَ شِواءٍ شهيٍّ من المنزل.

سألتُه: «هل ذلك المكان نُزُل؟»

أجابني بتهذيب: «في خدمتك، أنا صاحب هذا النُّزل، يا سيدي، وآمُل أن تبقى معنا الليلة، فلْأصدِقك القول لم يكن لديَّ أيُّ صحبة طوال أسبوع.»

جلستُ على سور الجسر وملأتُ غليوني، وبدأتُ أستبينُ حليفًا.

قلتُ له: «أنت صغيرُ السن على أن تكون صاحبَ نُزل.»

قال: «تُوفي والدي منذ عام وترك لي هذا العمل، وأنا أعيش هناك مع جدتي. إنه عملٌ مملٌّ بالنسبة إلى شابٍّ صغير السن، ولم يكن اختياري المهني.»

«وماذا كان اختيارك؟»

احمرَّ وجهُه خجلًا فعليًّا، وقال: «أريدُ أن أكتبَ كتبًا.» صحتُ قائلًا: «وهل لديك فرصة أفضل من تلك؟ فلطالما رأيتُ أن صاحبَ النُّزل يمكنه أن يصبح أفضلَ راوي قصصٍ في العالم.»

قال بلهفة: «ليس الآن، ربما كان هذا في الأيام الغابرة، حين كان الرحَّالة، ومؤلفو الأغاني الشعبية، وقُطاع الطرق، وسعاة البريد في العربات يجوبون الطرق. لكن ليس الآن؛ فلم يَعُدْ يأتي إلى هنا إلا السياراتُ ذات المحركات المليئة بنساء بدينات، التي تتوقف من أجل تناول الغداء، وصيادُ أسماك واحد أو اثنان في الربيع، والمستأجرون الذين يأتون لممارسة الصيد بالبنادق في شهر أغسطس. لا توجد مادة خصبة يمكن الحصولُ عليها من هؤلاء. أريد أن أرى الحياة، أن أجوب العالم، وأن أكتب أشياءَ مثل كبلينج وكونراد. إلا أن أقصى ما استطعتُ فعله حتى الآن هو أن يُنْشَر لي بعض الأبيات الشعرية في مجلة تشامبرز.» نظرتُ نحو النُّزل الذي كان يبدو ذهبيَّ اللون في ضوء غروب الشمس أمام التلال البُنِّيَّة.

«لقد ارتحلتُ قليلًا في العالم، ولا أُقلِّل أبدًا من شأن صومعة كتلك. هل تعتقد أن المغامرة لا توجد إلا في المناطق الاستوائية أو بين النبلاء ذوي القمصان الحمراء؟ لعلك لصيقٌ بها في هذه اللحظة.»

قال وعيناه تلمعان: «هذا ما يقوله كبلينج.» وبدأ يستشهد ببعض الأبيات عن «الرومانسية التي تحدث في قطار التاسعة والربع.»

صحتُ قائلًا: «إليك قصة حقيقية إذن، وبعد شهر من الآن يمكنك صياغتُها في شكل رواية.»

جلسنا على الجسر في هذا الغسق العذب لشهر مايو وبدأتُ أقصُّ عليه حكاية لطيفة. كانت حقيقيةً في عناصرها الأساسية، أيضًا، رغم أني غيَّرتُ التفاصيل الصغيرة. اخترعتُ كوني قطبًا من أقطاب صناعة التعدين من كيمبرلي، وأنني واجهت مشكلاتٍ كثيرة مع باعة الألماس غير الشرعيين وهاجمتني عصابةٌ منهم، ظلَّت تلاحقني عبر المحيط، وقتلوا صديقي المقرب، والآن هم في أعقابي.

سردتُ القصة سردًا جيدًا، مع أنه ليس من اللائق بي أن أقول هذا. تخيَّلتُ هروبًا من صحراء كالاهاري إلى أفريقيا الألمانية، والأيام الجافة التي كنا نعيش فيها على القليل والليالي الزرقاء المخملية الرائعة. وصفتُ له هجومًا تعرضتُ له كاد أن يوديَ بحياتي في رحلة العودة إلى الديار، وهوَّلتُ من جريمة القتل التي ارتُكبت في بورتلاند بليس. صحتُ قائلًا: «ألستَ تبحثُ عن مغامرة، حسنًا لقد عثرت عليها هنا؛ فالأشرار يطاردونني، والشرطة تُطاردهم. إنه سباق أسعى إلى الفوز فيه.»

همس، وهو يستنشق الهواء بقوة، قائلًا: «يا إلهي! هذا تمامًا مثل قصص رايدر هاجارد وكونان دويل.»

قلتُ له بامتنان: «أنت تُصدِّقُني.»

قال: «بالطبع أصدِّقُك.» ومدَّ يدَه إليَّ وواصل: «أنا أصدِّقُ أيَّ شيء غير اعتيادي؛ فالشيء الوحيد الذي تشكُّ فيه هو الشيء المعتاد.»

كان صغيرَ السن للغاية، لكنه كان الرجلَ الذي يستحقُّ مالي.

قلتُ له: «أعتقدُ أنهم فقدوا أثري في الوقت الحالي، ولكني بحاجة إلى الاختباء لبضعة أيام، هل تسمح لي بالبقاء هنا؟»

أمسك بساعدي في لهفة وجذبني نحو المنزل. قال: «يمكنك البقاءُ هنا في راحة واطمئنان كما لو كنتَ في حفرة داخل الأرض. وسأحرصُ أيضًا على ألا يُثرثرَ أحدٌ بشأن وجودك. وأنت هل ستخبرني بالمزيد عن مغامراتك؟»

حين دخلتُ إلى شرفة النُّزل سمعتُ من بعيد صوتَ محرك. رأيتُ خيالًا في جهة الغرب المعتمة وكانت الطائرةُ أحادية السطح صديقتي.

أعطاني غرفةً في الجزء الخلفي من المنزل، بإطلالة رائعة على السهل الواسع المرتفع، وترك لي حرية استخدام مكتبه الخاص، الذي كان عامرًا بنُسَخ رخيصة الثمن من أعمال

مؤلفيه المفضلين. لم أرَ الجَدَّة قط، ولهذا خمَّنتُ أنها ربما تكون طريحةَ الفراش. كانت امرأةٌ عجوز تُدعى مارجيت هي مَن تُحضر لي وجباتي، وكان صاحب النُّزُل يلازمني طوال الوقت. أردت أن أخلوَ بنفسي لبعض الوقت، ولهذا اخترعتُ عملًا من أجله. كانت لديه دراجةٌ نارية، ولهذا أرسلتُه في صباح اليوم التالي لإحضار الصحيفة اليومية، التي عادةً ما تصل مع البريد في وقت متأخر من فترة بعد الظهيرة. أخبرتُه أن ينتبهَ جيدًا، ويلاحظَ أيَّ شخصيات غريبة يراها، ويركزَ على وجه الخصوص على السيارات والطائرات. بعدها جلستُ بلهفة بالغة أُدقِّق في مفكرة سكادر.

عاد عند الظهيرة ومعه صحيفةُ سكوتسمان. لم أجد شيئًا فيها ما عدا المزيد من الأدلة المستقاة من بادوك وبائع الحليب، وتكرارًا لبيان يوم أمس بأن القاتل اتجه شمالًا. غير أنه كان ثمة مقالٌ طويل أُعيدت طباعته من صحيفة ذا تايمز عن كارولايدس والأوضاع في البلقان، على الرغم من عدم وجود أيِّ ذكرٍ لأي زيارة إلى إنجلترا. تخلصتُ من صاحب النزل في فترة بعد الظهيرة؛ إذ كان بحثي عن الشيفرة على أَشُدِّه.

كما أخبرتُكم، كانت شيفرة رقمية، وعن طريق استخدام نظام مُحْكم من التجارب اكتشفتُ معنى كلٍّ من الأصفار والنقاط. كانت المشكلة في الكلمة المفتاحية، وحين فكرتُ في ملايين الكلمات الغريبة التي ربما يكون قد استخدم أيًّا منها شعرتُ باليأس. إلا أنه في نحو الساعة الثالثة جاءني إلهامٌ مفاجئ.

ورَد على ذاكرتي اسمُ جوليا سزيشيني؛ فقد قال سكادر إنها كانت المفتاحَ إلى مسألة كارولايدس، وخطر ببالي أن أجربَه على هذه الشيفرة.

ونجحتُ؛ فالحروف الخمسة لاسم جوليا أعطتني موضعَ الحروف المتحركة؛ فحرف A كان يُعبِّر عنه حرفُ J، الحرف العاشر في الأبجدية الإنجليزية، وعليه كان يُمثِّله الرمز X في الشيفرة (الذي يمثِّل الرقم عشرة في اللغة اللاتينية). أما E فقد كان XXI وهكذا. أما اسم سزيشيني فقد أعطاني أرقامَ الحروف الساكنة الأساسية. كتبتُ هذا المخطط على قطعة من الورق وجلستُ لأقرأ صفحات سكادر.

في غضون نصف ساعة كنتُ أقرأ بوجهٍ ضاربٍ إلى البياض وأصابعَ تدقُّ على الطاولة.

نظرتُ من النافذة ورأيتُ سيارةَ سباقات كبيرة تأتي عبر الوادي الضيق نحو النُّزل. اقتربَتْ من الباب، وسمعتُ صوتَ أناس ينزلون منها. بدا لي أنهما كانا اثنين؛ رجلين يرتديان ملابسَ فاخرة وقبعات من الصوف الخشن.

بعد مرورِ عشر دقائق دخل صاحبُ النُّزل إلى الغرفة وكانت عيناه تلمعان من الإثارة.

همس قائلًا: «ثمة رجلان في الأسفل يبحثان عنك. إنهما في غرفة الطعام الآن يشربان الويسكي والصودا. لقد سألَا عنك وقالَا إنهما كانا يأملان في أن يلقياك هنا. آه! وقد قدَّمَا وصفًا دقيقًا لك، حتى إنهما وصفَا حذاءك الطويل وقميصك. أخبرتُهما أنك أتيتَ إلى هنا ليلة أمس وغادرتَ في صباح اليوم على دراجة نارية، وأخذ أحدهما يسبُّ مثل عمال الحفر.»

جعلتُه يصفُ لي شكلَيهما. كان أحدهما نحيلًا داكنَ العينين أشعثَ الحاجبين، أما الآخر فكان دائمَ الابتسام ويتلعثم في حديثه. لم يكن أيٌّ منهما أجنبيًّا من أي نوع؛ كان صديقي الشابُّ متأكدًا من هذا.

أخذتُ قطعةً من الورق وكتبتُ عليها هذه الكلمات باللغة الألمانية كما لو أنها كانت جزءًا من خطاب:

... «بلاك ستون، لقد علم سكادر بهذا الأمر، لكنه لم يستطِع أن يفعل شيئًا لأسبوعين، وأنا أشكُّ في أنه بإمكاني فعلُ شيء الآن، خاصةً وأن كارولیدس غيرُ محدَّد في خُطَطه. لكن إذا أراد السيد تي مني هذا فسأبذل قصارى ...»

اصطنعتُها بإتقان كي تبدوَ كورقةٍ مقطوعة من خطاب شخصي.

«خذْ هذه إلى الأسفل وقُل عثرت عليها في غرفتي واطلب منهما إعادتَها لي إذا أدركاني.» بعد ثلاث دقائق سمعتُ السيارة وهي تبدأ في التحرك، وحين اختلستُ النظر من وراء الستارة رأيتُ شكل الرجلين. كان أحدهما نحيلًا والآخر كان أنيقًا؛ كان هذا كل ما استطعتُ رؤيته.

ظهر صاحبُ النزل وهو في غاية الإثارة. وقال والبهجة تغمره: «لقد أيقظتْهما ورقتُك من سُباتهما؛ فقد استحال لونُ الرجل ذي البشرة الداكنة إلى اللون الأبيض كالموتى وظلَّ يسبُّ سبابًا حادًّا، أما الرجل البدين فقد أطلق صفارة وبدا دميمَ المظهر. دفعَا نصف جنيه ذهبي مقابل مشروبهما ولم ينتظرَا أن يأخذَا الباقي.»

قلت له: «والآن سأخبرك بما أريد منك فعلَه. اركبْ دراجتَك واذهب إلى رئيس الشرطة في مدينة نيوتن ستيوارت. صفْ له الرجلين وقُل له إنك تشكُّ في علاقتهما بجريمة القتل التي حدثت في لندن. يمكنك اختراعُ أسباب. هذان الاثنان سيعودان، لكن لا تخشَ شيئًا. لن يحدث هذا الليلة؛ إذ إنهما سيتبعان أثري أربعين ميلًا على الطريق، لكنهما سيأتيان في الصباح الباكر غدًا. قُل للشرطة أن تحضر إلى هنا في وقت مبكر للغاية.»

انطلق مثل طفل مطيع، بينما ظللتُ أنا أعمل على مفكرة سكادر. حين عاد تناولنا طعامَ العشاء معًا، وبنوع من اللياقة العامة تركتُه يعرف مني المزيد. منحتُه الكثيرَ من المعلومات عن صيد الأسود وحرب ماتابيلي، وأنا أفكر طوال الوقت كم كانت هذه أحداثًا بسيطة مقارنة بما أنا متورط فيه الآن! حين ذهب إلى النوم جلستُ وأنهيتُ العمل على مفكرة سكادر. ظللتُ أدخن وأنا أجلس على أحد المقاعد حتى بزوغ ضوء النهار؛ إذ لم أتمكن من النوم.

في نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي شهدتُ قدومَ ضابطَين ورقيب. تركوا سيارتَهم داخل مرآب للسيارات بناءً على توجيهات صاحب النُّزل، ودخلوا إلى المنزل. بعد مرور عشرين دقيقة رأيتُ من نافذتي سيارةً أخرى تعبر السهل الواسع المرتفع من الجهة المقابلة. لم تأتِ هذه السيارة إلى النزل، بل توقفت على بُعد مائتي ياردة تحت ظلِّ مجموعةٍ من الأشجار. لاحظتُ أن راكبيها عكسوا اتجاهها بعناية قبل مغادرتها. وبعد دقيقة أو اثنتين سمعتُ وقْعَ خطواتهم على الحصى خارج النافذة.

تمثَّلت خطتي في أن أبقى مختبئًا في غرفتي، وأرى ماذا سيحدث. كانت لديَّ فكرةٌ مؤدَّاها أنه إذا تمكنتُ من أن أجمع الشرطة مع الأشخاص الآخرين الأكثر خطورة الذين يطاردونني، فربما يتحقق من ذلك شيءٌ ما لصالحي. إلا أنني الآن خطرتْ لي فكرة أفضل؛ فقد كتبتُ سطرًا من الشكر لمضيفي، وفتحتُ النافذة وهبطتُ منها بهدوء على شجيرة الكشمش الشائك. عبرتُ حاجز الماء دون أن يلاحظني أحدٌ، وزحفت على جانب رافد مائي صغير، ووصلتُ إلى الطريق السريع على الجانب البعيد من بقعة تُغطِّيها الأشجار. هناك وجدت السيارة، في غاية الأناقة والنظافة تحت أشعة شمس الصباح، لكن مع وجود بعض الغبار عليها مما أنبأ بقطعها لرحلة طويلة. أدرْتُ محركها، وجلست في مقعد السائق، وتسللتُ بها إلى السهل الواسع المرتفع.

على الفور تقريبًا انخفض الطريقُ فلم أَعُد أستطيع رؤية النُّزل، لكن بدا أن الريح كانت تحمل إليَّ الأصواتَ الغاضبة.

الفصل الرابع

# مغامرة المرشح الراديكالي

ربما يكون بوسعكم تخيلي وأنا أقود تلك السيارة التي كانت قوَّتُها ٤٠ حصانًا؛ إذ كانت هذه هي أقصى طاقة لها، على طرق الأراضي السبخة غير المستوية في هذا الصباح المشرق من شهر مايو؛ ناظرًا خلفي أولًا ثم ناظرًا بتوتُّر إلى المنعطف التالي، ثم أخذتُ أقود السيارة وعيني شبهُ مغمضة، مفتوحة فقط بالقدر الذي يسمح لي بالبقاء مستيقظًا لأحافظ على بقائي على الطريق السريع؛ فقد كنت أفكر باستماتة بشأن ما عثرتُ عليه في مفكرة سكادر.

لقد أخبرني هذا الرجلُ الضئيلُ الحجم مجموعةً من الأكاذيب؛ فكلُّ قصصه عن البلقان والأناركيين اليهود ومؤتمر وزارة الخارجية كان كلامًا مضللًا، وكذا كانت مسألة كاروليدس. ولكن ليس تمامًا، كما ستسمعون. لقد خاطرتُ بكل شيء إيمانًا مني بقصته، ولكنه خذلني؛ فها هنا مفكرته تُخبرني بقصة مختلفة، وبدلًا من التزام الحذر وعدم تكرار ما وقعتُ فيه من قبل من خطأ، صدقتُها تصديقًا كاملًا.

لا أعرف السبب وراء ذلك. لقد بدتِ القصصُ جميعها حقيقية، والقصة الأولى، إن كنتم تفهمونني، كانت حقيقيةً أيضًا في جوهرها على نحوٍ غريب؛ فالخامس عشر من يونيو سيكون يومًا مصيريًّا، أكبر من مجرد قتل شخص أجنبي. لقد كان أمرًا جللًا لدرجة أنني لم أكن ألوم سكادر على إبقائي بعيدًا عن اللعبة ورغبته في اللعب منفردًا. لقد تيقنتُ من أن هذه كانت نيتَه. لقد أخبرني شيئًا بدَا كبيرًا بما يكفي، لكن الأمر الحقيقي كان أكبرَ من ذلك بكثير لدرجة أنه، الرجل الذي كان قد اكتشفه، أراد الاحتفاظ بالأمر كله لنفسه. لم ألُمْه؛ ففي نهاية الأمر الأشياء التي كان جشعًا بالأساس بشأنها كانت جميعًا تنطوي على مخاطرات.

كانت القصةُ بأكملها مدونةً في ملحوظاته مع وجود بعض الفجوات التي، كما تفهمون، كان من شأنه أن يملأَها من ذاكرته. لقد دَوَّن، أيضًا، مصادرَ معلوماته، وكانت لديه حيلةٌ غريبة هي أنه كان يعطيها جميعًا قيمة رقمية ثم يحاول إيجادَ نوعٍ من التوازن بينها، وكانت كلُّ قيمة تُعَبِّر عن درجة موثوقية كلِّ مرحلة في القصة. كانت الأسماءُ الأربعة التي دوَّنها هي مصادرَ لمعلوماته، وكان ثمة رجلٌ، يُدعى دوكروسن، حصل على خمسة من أصل خمس نقاط يمكن الحصول عليها، ورجل آخر، يُدعى أمرسفورت، حصل على ثلاثة. كانت العناصر الأساسية للقصة مذكورةً بالكامل في المذكرة بالإضافة إلى عبارة واحدة غريبة وردت عدة مرات بين قوسين. كانت هذه العبارة هي «درجات السلَّم التسع والثلاثون.» وفي آخر مرة وردت فيها كُتبت هكذا: «درجات السلَّم التسع والثلاثون، عددتُها بنجاح بالغ في ١٠:١٧ مساءً.» لم أستطِع أن أفهم شيئًا من هذا.

أول شيء عرفتُه كان أن الأمر لم يكن متعلقًا بمنع الحرب؛ فهي واقعة لا محالة، وهو أمر مؤكد كقدوم عيد الميلاد؛ فقد جرى الترتيبُ لهذه الحرب، على حدٍّ قول سكادر، منذ فبراير من عام ١٩١٢. سيكون كارولیدس السببَ في نشوبها؛ فقد كان قتله معدًّا بالفعل، وكان مقررًا الإجهازُ عليه في الرابع عشر من يونيو، بعد أسبوعين وأربعة أيام من صباح ذلك اليوم من شهر مايو. فهمتُ من ملحوظات سكادر أنه لا يمكن لشيء على وجه الأرض أن يحولَ دون حدوث ذلك؛ فقد كان حديثُه عن حرَّاس إمبيروس الذين من شأنهم أن يفعلوا أيَّ شيء حديثًا بالغَ الحماس.

والأمرُ الثاني الذي علمتُه أن هذه الحرب ستكون مفاجأةً هائلة لبريطانيا؛ فوفاة كارولیدس ستُحدث شقاقًا بين دول البلقان، ثم ستتدخل فيينا وتُقدِّم إنذارًا نهائيًّا. أما روسيا فلن يروقَها هذا الأمر وستُصدر عباراتٍ غاضبة. إلا أن برلين ستلعب دورَ المصلح صانع السلام، وستسعى إلى تهدئة الوضع المتأزم، حتى تعثرَ فجأةً على مسوِّغ لافتعال نزاعٍ، وتلتقطه، وفي غضون خمس ساعات ستنقضُّ علينا. كانت تلك هي الفكرة بأكملها، وكانت فكرةً جيدة بالفعل. البدءُ بالكلام المعسول ثم الانقضاض في الظلام؛ ففي الوقت الذي نتحدث فيه عن حسن نوايا وسلامة مقاصد ألمانيا، ستُحاط سواحلنا بالألغام في صمت، وتنتظر الغواصات لتنقضَّ على كل سفينة حربية.

إلا أن هذا كلَّه كان يعتمد على الأمر الثالث، الذي كان من المتوقع حدوثُه في الخامس عشر من يونيو. لم أكن سأستطيع فهْمَ هذا أبدًا لو لم يتصادف التقائي ذات مرة بضابط أركان فرنسي، كان عائدًا من غرب أفريقيا، والذي أخبرني بكثير من الأشياء؛ أحدها أنه

على الرغم من كل ما يُقال من هُراء في البرلمان، كان ثمة تحالفٌ حقيقي قائم بين فرنسا وبريطانيا، وأن هيئتَي الأركان في البلدين تلتقيان بين الحين والآخر وتضعان خُططًا للعمل المشترك في حالة الحرب. حسنًا، في شهر يونيو من المتوقع مجيءُ شخصية رفيعة المستوى من فرنسا، ولن يغادرَ دون الحصول على أقل من بيان بتشكيلات الأسطول الوطني البريطاني الجاهز للتعبئة. على الأقل أدركتُ أنه أمرٌ شبيه بهذا؛ على أي حال كان شيئًا مهمًّا بدرجة غير عادية.

إلا أنه في الخامس عشر من يونيو سيتواجد آخرون في لندن، آخرون لا يسعُني إلا أن أُخمِّنَ هويتهم. كان سكادر مكتفيًا بأن يدعوَهم إجمالًا باسم «بلاك ستون». لم يكونوا يُمثِّلون حلفاءنا، بل ألد أعدائنا، والمعلومات التي كان من المقرر إرسالُها إلى فرنسا، ستُغيِّر طريقَها وتذهب إلى جيوبهم. وكان من المفترض استخدامُها، تذكَّروا استخدامها بعد أسبوع أو اثنين، بالاستعانة بمدافع ضخمة وطوربيدات سريعة، فجأة في جنح ظلام ليلة من ليالي الصيف.

كانت هذه هي القصة التي عكفتُ على فكِّ شفرتها في غرفة خلفية في نُزل ريفي تطلُّ على حديقة من الملفوف. وكانت هذه هي القصة التي ظلَّت تلحُّ على ذهني وأنا أتنقل بسيارة السباق من وادٍ ضيقٍ لآخر.

كان أول ما تبادر لي أن أكتب رسالة إلى رئيس الوزراء، لكن بعد التفكير قليلًا في الأمر اقتنعتُ بأن هذا سيكون عديمَ الجدوى؛ فمن ذا الذي سيصدق قصَّتي؟ لا بد لي من إظهار إشارة، دليل ما، والربُّ وحده يعرف ماذا يمكن أن يكون هذا الدليل. الأمر الأهم هو أنه لا بد لي من المضيِّ قُدُمًا، وأن أكون مستعدًّا للتصرف حين تصل الأمور إلى ذروتها، وذلك لن يكون أمرًا هينًا مع شرطة الجزر البريطانية التي تُلاحقني بكامل طاقتها ومراقبي جماعة بلاك ستون الذين يقتفون أثري بصمت وسرعة.

لم يكن لديَّ هدفٌ واضح من رحلتي، لكني اتجهتُ شرقًا مع أشعة الشمس؛ إذ تذكرتُ من الخريطة أنني إن اتجهتُ شمالًا فإني سأصل إلى منطقة تضمُّ مناجم الفحم والمدن الصناعية. في الوقت الحالي كنتُ بعيدًا عن الأراضي السَّبَخة وأجتاز مَرْجًا واسعًا منخفضًا على طول ضفة أحد الأنهار. سرتُ لأميال بجانب جدار إحدى الحدائق، وحين انحسرتِ الأشجارُ رأيتُ قلعة هائلة. سرتُ بالسيارة عبر قرية صغيرة قديمة أسقف منازلها مصنوعة من القش، وعبر جداول مائية هادئة في أرض منخفضة، واجتزتُ حدائق تتألق بما فيها من نباتات الزعرور وشجيرات القصاص الأصفر. كان يُخيِّم على الأراضي

هدوءٌ شديد لدرجة أني لم أكد أصدق أني تركتُ خلفي في مكانٍ ما أناسًا يسعَون للنيل مني، وأنه في غضون شهر، إن لم يحالفْني حظٌّ من السماء، ستصير هذه الوجوه الريفية الممتلئة شاحبةً ومحدقة، وستمتلئ الحقولُ الإنجليزية بجثث القتلى.

في منتصف اليوم تقريبًا دخلتُ قريةً طويلة متناثرة المنازل، وقررتُ التوقفَ وتناول الطعام. في منتصف الطريق رأيتُ مكتب البريد، وعلى درجات سُلَّمه وقفتْ مديرتُه وأحدُ رجال الشرطة منهمكين في دراسة برقية. حين أبصراني تنبَّهَا، وتقدَّم رجلُ الشرطة إلى الأمام رافعًا يدَه، وصاح طالبًا مني التوقف.

كدتُ أن أكون أحمقَ وأنصاع لما يقوله. ثم خطر لي أنه ربما كان لهذه البرقية صلةٌ بي، وأن أصدقائي في النُّزل قد توصلوا إلى تفاهم فيما بينهم، وأجمعوا على الوصول إلى مكاني، وأنه كان من السهل عليهم للغاية أن يُرسلوا أوصافي وأوصاف السيارة في برقيات إلى ثلاثين قرية من المحتمل أن أمرَّ عليها. رفعتُ قدمي من فوق المكابح في الوقت المناسب. وحينئذٍ، خدش رجلُ الشرطة غطاءَ محرك السيارة بيده، ولم يبتعد إلا حين رأى جانب وجهي الأيسر.

رأيتُ أن الطُّرق العامة لا تصلح لأسير فيها؛ ولهذا تحولتُ إلى الطرق الجانبية. لم يكن الأمر سهلًا دون وجود خريطة؛ إذ كان ثمة خطرُ الوصول إلى طريق مزرعة ما وانتهاء الحال بي داخل بِركة من بِرَك البط، أو ساحة إسطبل خيل، ولم يكن بوسعي أن أتحمل مثل هذا النوع من التأخير. بدأتُ أرى كم كنتُ أحمقَ عندما سرقت هذه السيارة؛ فهذا الوحش الأخضر الكاسر سيكون أسهلَ دليل على مكان تواجدي في جميع أنحاء اسكتلندا. وإذا تركتُها ومضيت سيرًا على قدميَّ، سيُكتشف مكانها في غضون ساعة أو اثنين ولن يمكنني الفوزُ أبدًا في السباق.

الشيء الذي تحتَّم عليَّ فعله على الفور هو الذهاب إلى أكثر الطرق المنعزلة على الإطلاق. وقد عثرتُ عليها بالفعل بعد قليل حين وصلتُ إلى أحد روافد نهر كبير، ودخلتُ في وادٍ صغير به تلالٌ شديدة الانحدار تُحيط بي من كل جانب، وفي نهايته طريقٌ ملتوٍ يصعد فوق أحد الممرات. لم أقابل أحدًا في هذا المكان، لكنه كان يؤدي بي إلى أقصى الشمال، ولهذا استدرتُ جهة الشرق على طريق سيئ وأخيرًا وصلتُ إلى خط سكة حديدية مزدوج كبير. رأيت من بعيد في الأسفل واديًا متسعًا وخطر لي أنه إن عبرتُ هذا الوادي فربما أجد نُزلًا نائيًا أقضي فيه الليل. كان المساء قد بدأ يُخيِّم، وكنتُ أشعر بجوع شديد؛

إذ لم أتناول شيئًا منذ الإفطار عدا فطيرتين اشتريتهما من عربة بائع مخبوزات. عندئذٍ سمعتُ ضوضاء في السماء، وفجأة ودون سابق إنذار رأيتُ تلك الطائرة الشيطانية، على ارتفاع منخفض، تبعُد عني نحو عدة أميال جهة الجنوب وتتجه نحوي بسرعة هائلة.

كان من المنطقي أن أتذكَّرَ أن وجودي في الأرض السَّبَخة المكشوفة يجعلني تحت رحمة هذه الطائرة، وأن فرصتي الوحيدة كانت في اللجوء إلى غطاء من أوراق الأشجار في الوادي. نزلتُ على التلِّ بسرعة كالبرق، ناظرًا حولي، كلما سنَح لي ذلك، لأراقبَ تلك الطائرة الملعونة. سرعان ما وصلتُ إلى طريق بين سياج الأشجار، وينحدر نحو وادٍ صغير منعزل لجدول مائي. ثم وصلتُ إلى غابة كثيفة الأشجار نوعًا حيث خفَّفتُ من سرعتي.

فجأةً سمعتُ إلى يساري صوتَ محرك سيارة أخرى، وما أصابني بالفزع أنني أدركتُ أني على وشك الوصول إلى عارضتَي بوابة تصل بين طريق خاص والطريق السريع. أصدر بوقُ سيارتي صوتًا بائسًا، لكن الوقت كان قد تأخر كثيرًا. ضغطتُ بأقصى قوة على المكابح، لكن اندفاعي كان شديدًا للغاية، ورأيتُ أمامي سيارةً تنزلق بعرض الطريق الذي أسير فيه. في غضون ثانية سيحدث تصادمٌ هائل. فعلتُ الشيء الوحيد الممكن، ودخلتُ مسرعًا بالسيارة في سياج من الأشجار على يميني، متمنيًا أن أجد شيئًا ما أملس من خلفه.

إلا أنني كنتُ مخطئًا في هذا؛ فقد انزلقت سيارتي عبر السياج كالزبد، ثم غاصت في شيءٍ ما أمامها على نحو مقزز. تصورتُ ما سيحدث بعد هذا، فوثبتُ على المقعد وكان من المفترض أن أقفز إلى الخارج؛ إلا أن فرعًا من فروع نبات الزعرور أصابني في صدري، ورفعني إلى أعلى وأمسك بي، في حين انساب من تحتي طنٌّ أو طنَّان من المعدن الباهظ الثمن، وقفز وتدحرج، ثم سقط بعنف بالغ إلى نحو خمسين قدمًا في قاع النهر.

استطعتُ ببطء التخلصَ من هذا الفرع، ونزلتُ أولًا على سياج الشجيرات، ثم بتأنٍّ بالغٍ على تعريشة من نبات القراص. حين وقفتُ على قدميَّ أمسكتْ يدٌ بذراعي، وسألني صوتٌ متعاطف ويبدو عليه خوفٌ بالغ إذا ما كنتُ قد أُصبتُ بأذًى.

وجدتُ نفسي أنظر إلى شابٍّ طويل القامة يرتدي نظاراتٍ واقية ومعطفًا فضفاضًا من الجلد، وظلَّ يطلب البركةَ من الرب ويُقدِّم لي اعتذاراتٍ لا حصر لها. أما أنا، فبمجرد أن استعدتُ أنفاسي، كنتُ سعيدًا أكثر من أي شعور آخر. فما حدث كان طريقةً جيدة للتخلص من السيارة.

رددتُ عليه قائلًا: «الخطأُ خطئي أنا يا سيدي؛ فمن حسنِ الطالع أني لم أرتكب جريمةَ قتلٍ أُضيفها إلى سلسلة حماقاتي. لقد كانت هذه هي نهاية جولتي بالسيارة في اسكتلندا، إلا أنه كان من الممكن لها أن تكون نهايةَ حياتي.»

أخرج ساعةً وتفحَّصها، وقال: «أنت الشخص المناسب، يمكنني أن أفرِّغ نفسي لمدة ربع ساعة، ومنزلي يقع على بُعد دقيقتين من هنا. سأحرص على إعطائك ملابسَ ملائمة لترتديَها، وطعامًا جيدًا وسريرًا مريحًا. بالمناسبة أين أمتعتُكَ؟ أهي في النهر مع السيارة؟»

قلتُ: «إنها في جيبي.» ولوَّحتُ له بفرشاة أسنان. «أنا من المستعمرات البريطانية، وأسافر دون أمتعة كثيرة.»

صاح الرجل: «من المستعمرات البريطانية؟ يا إلهي! إنك بالضبط الشخص الذي كنتُ أدعو لأجدَه. هل أنت بأي حال من الأحوال من أنصار التجارة الحرة؟»

قلت، دون أن يكون لديَّ أدنى فكرة عما كان يقصد بهذا: «أجل أنا كذلك.»

ربَّتَ على كتفي وأسرع بي إلى داخل سيارته. بعدها بثلاث دقائق أصبحنا أمام منزل ريفي صغير مريح المنظر بين أشجار الصنوبر، وقادني إلى الداخل. أخذني أولًا إلى غرفة للنوم، ووضع أمامي ستًّا من بِذْلاته؛ إذ كانت بِذْلتي قد اهترأت تمامًا. اخترتُ واحدة فضفاضة زرقاء اللون من قماش السيرج، كانت تختلف اختلافًا واضحًا للغاية عن ملابسي السابقة، واستعرتُ منه ياقةً من الكتَّان. بعد هذا أدخلني إلى غرفة الطعام حيث وجدتُ بقايَا وجبة سابقة على الطاولة، وقال لي إن أمامي خمسَ دقائق فحسب لتناول الطعام. وأضاف: «يمكنك أخذُ وجبة خفيفة معك في جيبك، وسنتناول طعام العشاء حين عودتنا. لا بد لي من الوصول إلى القاعة الماسونية في الساعة الثامنة، وإلا فإن وكيلي سيُمسك بتلابيبي.»

شربتُ فنجانًا من القهوة وأكلتُ بعضًا من لحم الخنزير البارد، بينما ابتعد هو متحدثًا إليَّ وهو واقفٌ على سجادة المدفأة.

«كما تجدُ، أنا في حالة سيئة من الفوضى يا سيد، بالمناسبة لم تخبرْني باسمك. تويسدون؟ هل تربطك أيُّ صلة قرابة بتومي تويسدون من الستينيات؟ كلَّا؟ حسنًا، أنا مرشح ليبرالي في هذا الجزء من العالم، وكان لديَّ اجتماعٌ الليلة في براتلبرن، وهي مدينتي الرئيسية، والحصن الحصين لحزب المحافظين اللعين. أقنعتُ رئيس الوزراء الاستعماري الأسبق كرمبليتون، بالحضور والحديث نيابةً عني الليلة، وأعلنتُ عن الحدث على نطاق واسع للغاية، وروجنا للحدث في المكان بأكمله لجذب أكبر عدد من الناس. عصر هذا اليوم

تلقيت برقية من هذا الشخص الدنيء يخبرني فيها أنه أُصيب بالإنفلونزا في بلاكبول، وها قد تُرِكْتُ لأقوم بالأمر كله بنفسي. كان من المفترض أن أتحدث لعشر دقائق والآن أصبح عليَّ الحديث لأربعين دقيقة، ومع أني أجهدتُ ذهني بالتفكير طوال ثلاث ساعات في شيء ما، إلا أنني لا يمكنني ببساطة الاستمرار كل هذه المدة. والآن لا بد أنك إنسان طيب وستساعدني؛ فأنت من أنصار التجارة الحرة ويمكنك أن تخبر جمهورنا عن مدى إخفاق سياسة الحماية في المستعمرات؛ فكلكم أيها الرفاق تتمتعون بموهبة الثرثرة التي كنت أتمنى لو أن الرب أنعم عليَّ بها. سأكون مدينًا لك إلى الأبد إن فَعَلْت.»

لم يكن لديَّ إلا بضعُ أفكار قليلة عن التجارة الحرة بشكل أو بآخر، لكني لم أرَ فرصة أخرى للحصول على ما أريده عدا هذا. لقد كان رفيقي الشاب منشغلًا للغاية بالصعوبات التي كان يواجهها لدرجةٍ تمنعه من التفكير في مدى غرابة أن يطلب من غريب، نجا لتوِّه بأعجوبة من الموت وخسر سيارةً بقيمة ألف جنيه إسترليني، مخاطبة جمْع من الناس بالنيابة عنه ارتجالًا. إلا أن الضرورات الملحَّة لم تسمح لي بالتفكير في غرابة الأمر أو انتقاء واختيار مَن يقدِّمون لي الدعم.

قلت له: «حسنًا، أنا لستُ متحدِّثًا لبقًا جدًّا، لكني سأخبرهم قليلًا عن أستراليا.»

حين تفوَّهتُ بهذه الكلمات سقطتْ عن كاهله همومُ الدنيا، وانهال عليَّ بالشكر والثناء. أعارني مِعطفًا كبيرًا من تلك التي نرتديها في أثناء ركوب السيارة ولم يهتمَّ بأن يسألَني عن سبب ذهابي في رحلة بالسيارة دون أن أمتلكَ معطفًا فضفاضًا، وبينما كنا نسير في الطرقات الترابية، ردَّدَ على مسامعي الحقائقَ البسيطة لقصة حياته. كان يتيمًا، وربَّاه عمُّه، الذي نسيتُ اسمَه، لكنه كان في مجلس الوزراء، ويمكن للمرء قراءةُ خطبه في الصحف. طاف العالمَ بعدما ترك كامبريدج، ثم، لعدم اشتغاله بوظيفة، نصحه عمُّه بالعمل بالسياسة. فهِمتُ أنه لم تكن له تفضيلاتٌ حزبية؛ فقد قال بمرح: «يوجد أناسٌ صالحون في كلَا الحزبين، ويوجد كذلك الكثيرُ من الأشخاص المزعجين. أنا ليبرالي؛ لأن أسرتي كانت دائمًا تنتمي لحزب الأحرار.» لكنه وإن كان غيرَ مبالٍ بالأمور السياسية، فقد كانت له آراءٌ قوية في شئون أخرى؛ فقد اكتشف أني أعرف القليل عن الخيل، فانطلق في الحديث عن الخيول المشاركة في سباق ديربي، وكان لديه الكثيرُ من الخُطط لتحسين مهارات الرماية لديه. إجمالًا، كان شابًّا غرًّا على قدرٍ كبير من النقاء والاحترام.

حين مررْنا بقرية صغيرة أشار إلينا ضابطَا شرطة بالتوقف، ووجَّهَا مصباحَيهما نحونا.

قال أحدُهما: «عذرًا يا سير هاري؛ فلدينا تعليماتٌ بالبحث عن سيارة، ووصفُها لا ينطبق على سيارتك.»

قال مضيفي: «حسنًا.» بينما شكرتُ أنا العنايةَ الإلهية على الطرق الغريبة التي كنتُ أنجو بها. بعد ذلك لم يَعُدْ يتكلم؛ إذ بدأ عقلُه ينشغل بشدة بالخُطبة التي سيُلقيها. ظلَّ يُتمتم بشفتيه، ويدور بعينيه في كل مكان، وبدأتُ أنا أُعِدُّ نفسي لكارثة ثانية. حاولتُ التفكير في شيء أقوله، لكن عقلي كان خاليًا كصخرة صماء. بعد ذلك وقفنا أمام أحد الأبواب في شارع، وتلقينا ترحيبًا صاخبًا من بعض الرجال الذين كانوا يضعون أوسمة على شكل أزهار. كان في القاعة نحو خمسمائة شخص، معظمهم من النساء، والكثير من الرءوس الصلعاء، وعشرة أو عشرين من الشباب. كان الرئيس قَسًّا ضئيلًا بأنف حمراء، وكان يتحسر على غياب كرامبليتون، ويُناجي نفسَه بشأن ما أصابه من إنفلونزا، وقدَّمني للحضور على أنني «أحدُ قادة الفكر الأسترالي الموثوق بهم»، كان رجلًا شرطةٍ يقفان عند الباب، وتمنيتُ أن يلحظَا تلك الشهادة. بعد ذلك بدأ السير هاري.

لم أسمع في حياتي قط مثل هذا الكلام؛ فهو لم يكن يعرف أيَّ شيء عن مبادئ الخطابة. كان معه حفنةٌ من الملحوظات التي كان يقرأ منها، وحين تركها ظلَّ يتلعثم في الكلام لوقت طويل. كان يتذكر بين الحين والآخر عبارةً قد حفظها عن ظهر قلب، فكان يعتدل في وقفته، ويُلقيها بأسلوب هنري إيرفينج الممثل المسرحي، وفي اللحظة التالية ينكبُّ على أوراقه ضعف ما كان عليه في السابق ويُتمتم بصوت خفيض. كان المكتوب فيها مروعًا أيضًا. تحدَّث عن «التهديد الألماني»، وقال إنه برُمَّته من ابتكار حزب المحافظين من أجل خداع الفقراء لتجريدهم من حقوقهم وعرقلة الفيض العظيم للإصلاح الاجتماعي، لكن هؤلاء «العمال النقابيون» أدركوا هذا وسخروا من أنصار حزب المحافظين إلى حدِّ الازدراء. كان يؤيد تأييدًا تامًّا تخفيضَ عدد أسطولنا برهانًا على حسن نوايانا، ثم إرسال إنذار نهائي إلى ألمانيا نُخبرها فيه بفعل الأمر نفسه وإلا سنقضي عليها. قال كذلك إنه لولا حزب المحافظين وأنصاره لكانت ألمانيا وبريطانيا رفقاء عمل في السلم والإصلاح. فكَّرتُ في المفكرة السوداء الصغيرة التي في جيبي! فلم يكن أصدقاء سكادر يكترثون لا بالسلم ولا بالإصلاح.

مع كل هذا أعجبتني الخطبة على نحوٍ غريب؛ فيمكنك أن ترى لطفَ هذا الشاب يشعُّ من وراء الكلام الرديء الذي ردَّدَه وحفظه عن ظهر قلب. كذلك خفَّف هذا الخطاب حِملًا عن ذهني؛ فربما لم أكن خطيبًا بارعًا، لكني كنتُ أفضلَ ألف مرة من السير هاري.

لم يكن حديثي بمثل هذا السوء حين جاء دوري؛ فقد أخبرتهم ببساطة كلَّ ما استطعتُ تذكُّرَه عن أستراليا، وأنا أدعو ألا يكونَ بين الحضور شخصٌ أسترالي يعرف بشأن حزب العمال والهجرة والخدمة الشاملة. أشكُّ في أني تذكَّرتُ الإتيان على ذكْر التجارة الحرة، لكني قلتُ إنه لا وجودَ لأنصار حزب المحافظين في أستراليا، فقط أنصار حزب العمال وحزب الأحرار. جلب هذا هتافَ الجمهور، وتحمَّسوا قليلًا حين بدأتُ أخبرهم عن نوع الأعمال التجارية الرائعة التي يمكن للإمبراطورية تحقيقُها إذا كثَّفنا حقًّا جهودنا.

إجمالًا أعتقد أنها كانت خطبةً ناجحة. ومع ذلك لم أُعجِب القَسَّ، وحين وجَّه عباراتِ الشكر الرسمية، تحدَّث عن خطاب السير هاري ووصفه بأنه «خطاب سياسي محنك»، وقال عن خطابي إنه «خطاب يتسم بفصاحة وكيل من وكلاء الهجرة».

حين عُدنا إلى السيارة مرةً أخرى كانت معنوياتُ مضيفي مرتفعةً للغاية لانتهائه من مهمته. قال: «يا له من خطاب رائع، يا تويسدون. والآن ستعود معي إلى المنزل؛ فأنا أعيش وحدي، وإذا قضيتَ معي يومًا أو يومين فسأجعلك تختبر تجربة صيد أسماك رائعة جدًّا.»

تناولنا عشاءً ساخنًا كنتُ في أمسِّ الحاجة إليه، ثم شربنا مشروبًا كحوليًّا في غرفة تدخين كبيرة مبهجة على صوت طقطقة حطب المدفأة. اعتقدتُ أن الوقت قد حان لأُخبرَه بالحقيقة؛ فقد رأيتُ في عينَي هذا الرجل أنه إنسان جدير بالثقة.

قلتُ له: «اسمع يا سير هاري، عندي شيءٌ مهم أريد أن أخبرَك به. أنت شخص طيب وأنا سأكون صريحًا معك. من أين أتيت بهذا الكلام الفارغ المسمم الذي تحدَّثتَ به الليلة؟»

اكفهرَّ وجهُه وسألني بكآبة: «هل كان بهذه الدرجة من السوء؟ لقد بدا غيرَ مترابط بعض الشيء. لقد حصلتُ على معظمه من مجلة «ذا بروجريسف» وكتيبات يُرسلها لي باستمرار وكيلٌ يعمل معي. لكن ألا تعتقد بالفعل أن ألمانيا يمكنها خوضُ الحرب معنا يومًا ما؟»

قلتُ له: «إذا طرحتَ هذا السؤال بعد ستة أسابيع فلن تحتاج إلى إجابة من أحد. إذا أعرتني انتباهك لنصف ساعة سأخبرك بقصة.»

ما زال بوسعي أن أرى أمامي هذه الغرفةَ المضيئة ذات الجدران المزينة برءوس الغزلان واللوحات العتيقة المعلقة عليها، والسير هاري واقفٌ في توتُّر متكئًا على الحافة

الحجرية للمدفأة، وأنا أجلس مستلقيًا على مقعد ذي مسندين أتحدث إليه. بدوت وكأنني شخصٌ آخر يقف جانبًا ويستمع إلى صوتي، ويحكم بتروٍّ على مصداقية قصتي. كانت هذه المرة الأولى التي أُخبر فيها أحدًا بالحقيقة كاملة تمامًا كما فهمتُها، وقد أفادني هذا كثيرًا؛ إذ وُضع الأمر في نصابه في ذهني. لم أغفل ذكْرَ أيِّ تفاصيل؛ فقد أخبرتُه كلَّ شيء عن سكادر وبائع الحليب والمفكرة وما فعلتُه في جالواي. عندئذٍ تحمَّس للغاية وتقدَّم إلى الأمام وجلس على سجادة المدفأة.

قلتُ له في ختام حديثي: «كما ترى فأنت تأوي في منزلك الآن الرجلَ المطلوب في جريمة قتل بورتلاند بليس. ومن واجبك الآن أن تُرسلَ سيارتَك في طلب الشرطة وتُسلِّمَني لهم. ولا أعتقدُ أن الأمر سيطول بي كثيرًا؛ فسيقع حادثٌ، وسيُغرَس سكينٌ في أضلعي بعد ساعة أو نحو ذلك بعد القبض عليَّ. ومع ذلك، فإن هذا واجبك بصفتك مواطنًا يلتزم بالقانون. ربما ستأسف على هذا التصرف بعد شهر من الآن، لكن ليس ثمة ما يدعوك إلى التفكير في ذلك.»

كان ينظر إليَّ بعينين لامعتين ثابتتين، ثم سألني: «ماذا كانت وظيفتُك في روديسيا يا سيد هاناي؟»

قلتُ له: «مهندس تعدين، لقد جمعتُ مالي بنزاهة، وقضيتُ وقتًا طويلًا في جمعه.»

«لم تكن وظيفةً تُضْعِف الأعصاب، أليس كذلك؟»

ضحكتُ وقلتُ له: «حسنًا، فيما يتعلق بذلك، فإن أعصابي جيدةٌ بالقدر الكافي.» أخذتُ خنجرَ صيدٍ من حامل مثبَّت على الجدار، وقمتُ بخدعة تفعلها قبائلُ الماشونا القديمة في روديسيا بأن قذفتُه في الهواء وأمسكتُ به بين شفتيَّ. تلك الحيلة تحتاج إلى جَنان ثابت بقدْر كبير.

شاهدني وعلى وجهه ابتسامةٌ، وقال: «أنا لا أريد إثباتًا، فربما أكون مغفلًا بعض الشيء على منصة الحديث، لكني أستطيع الحكم على الرجال؛ فأنت لستَ بقاتل ولستَ أحمقَ، وأعتقد أنك تقول الحقيقة، ولهذا سأدعمك. والآن ماذا بوسعي أن أفعل؟»

«أولًا أريد منك أن تكتب خطابًا إلى عمِّك، فلا بد لي من الاتصال بأفراد في الحكومة قبل الخامس عشر من يونيو.»

جذب شاربَه وقال: «هذا لن يُفيدَك في شيء؛ فهذا شأن يخصُّ وزارة الخارجية، ولن يكون لعمِّي علاقةٌ به، إضافةً إلى أنك لن تستطيع إقناعه أبدًا. كلا سأقوم بما هو أفضل؛ سأكتب إلى السكرتير الدائم لوزارة الخارجية؛ فهو أبي الروحي وأحدُ أفضل الأشخاص على الإطلاق. ماذا تريد منه؟»

جلس إلى طاولة وبدأ يكتب ما أُمليه عليه. كان فحوى الخطاب أنه إذا ظهر شخصٌ يُدعى تويسدون (رأيت من الأفضل الالتزام بهذا الاسم) قبل يوم الخامس عشر من يونيو فعليه أن يُحسن معاملته. قال في الخطاب إن تويسدون سيُثبت هويتَه بقول عبارة «بلاك ستون» وتصفير لحن أغنية «آني لوري».

قال السير هاري: «حسنًا، تلك هي الديباجة المناسبة. بالمناسبة، يمكنك العثورُ على أبي الروحي، واسمه السير والتر بوليفانت، في كوخه الريفي بمناسبة أسبوع العنصرة. إنه قريبٌ من أرتينسويل على نهر الكينر. انتهينا من هذا الأمر، والآن ماذا بعد؟»

«أنت تقريبًا في مثل طولي. أعرْني أقْدمَ بِذْلة صوفية لديك. أي شيء سيفي بالغرض ما دام لونه مختلفًا تمامًا عن ألوان الملابس التي أتلفتُها عصر هذا اليوم. ثم أرني خريطةً لهذه المنطقة واشرح لي طبيعة الأرض. أخيرًا، إذا جاءت الشرطة تبحث عني، فقط أرِهم السيارة التي سقطتْ في النهر الصغير. أما إذا ظهرت الجماعة الأخرى، فأخبرْهم بأني ركبتُ القطار السريع المتجه جنوبًا بعدما قابلتُكَ.»

فعل أو وعد بفعل جميع هذه الأشياء. حلَقتُ ما بقيَ من شاربي، وارتديتُ بِذْلة عتيقة أعتقد أن لونها يُسمَّى مزيج هيذر. أعطتني الخريطةُ فكرةً عن المكان الذي كنت موجودًا فيه، وأطلعتني على أمرين أردتُ معرفتهما، وهما مكان السكة الحديدية الرئيسية المتجهة إلى الجنوب، ومكان المقاطعات البرِّية القريبة. في الساعة الثانية أيقظني من غفوتي على المقعد في غرفة التدخين، وأرشدني وأنا لا أكاد أرى أمامي في هذه الليلة المظلمة المرصعة بالنجوم. عثرنا على دراجة قديمة في كوخ المعدات وأعطاها لي.

قال بلهجة آمرة: «أولًا انعطف يمينًا وسِرْ بحذاء غابة التنوب. عند مطلع الفجر ستكون قد وصلت إلى التلال. بعدها عليك أن تترك الدراجة في أحد المستنقعات وتسير في الأراضي السَّبَخة على قدميك. يمكنك البقاءُ لأسبوع بين رعاة الأغنام، وستكون عندها بأمان كما لو أنك في غينيا الجديدة.»

قدْتُ الدراجة بدأب على طرق التل المنحدرة المصنوعة من الحصى حتى بدأ ضوءُ الصباح يظهر باهتًا في السماء. ومع انقشاع الغيوم أمام سطوع الشمس، وجدتُ نفسي في عالم أخضر فسيح فيه أودية صغيرة واقعة في كل جانب وأفق أزرق بعيد. يمكنني هنا، على أي حال، أن أكتشفَ أعدائي من بعيد.

الفصل الخامس

# مغامرة عامل إصلاح الطرق ذي النظارات

جلستُ على قمة الممر واستعرضتُ وضعي.

فمن خلفي كان الطريقُ يصعد خلال صدع طويل بين التلال، كان في وقتٍ ما الوادي الصغير الأعلى لنهر شهير. وأمامي فضاءٌ فسيح يمتدُّ تقريبًا لمسافة ميل، مليءٌ بفجوات مستنقعات وكتَل عشبية خشنة، ومن ورائه ينحدر الطريقُ انحدارًا شديدًا إلى وادٍ صغير آخر يصل إلى سهلٍ تذوب زرقتُه القاتمة بعيدًا. على يميني ويساري كانت ثمة تلال خضراء محدبة ملساء كأنها فطائر محلاة، لكن جنوبًا، أي جهة اليسار، كان ثمة لمحةٌ من جبال متعددة الألوان، والتي تذكَّرتُ من الخريطة أنها كانت سلسلةَ التلال الكبيرة التي اخترتُها لتكون ملاذي. كنتُ على كتلة صخرية شاخصة وسط أرض ريفية شاسعة ومرتفعة، وكان بإمكاني رؤيةُ كل شيء يتحرك عن بُعد أميال. في المروج أسفل الطريق الذي يمتدُّ نصف ميل إلى الخلف رأيت كوخًا يصدر منه الدخان، لكنه كان العلامة الوحيدة على وجود حياة بشرية في هذا المكان. وبخلاف هذا لم يكن يُسمَع إلا تغريد طيور الزقزاق ورقرقة جداول المياه الصغيرة.

كانت الساعة حينئذٍ حوالي السابعة، وبينما كنتُ أنتظر سمعتُ مرةً أخرى هذا الصوت المشئوم في الهواء. عندئذٍ أدركتُ أن هذا الموقع الممتاز قد يكون في الواقع مصيدة؛ فلم يكن ثمة سترٌ يحتمي به حتى طائر صغير في مثل هذه الأراضي الخضراء المكشوفة.

جلستُ ساكنًا ويائسًا تمامًا بينما ازداد الصوت ارتفاعًا. ثم رأيتُ طائرة قادمة من جهة الشرق، كانت تطير على ارتفاع كبير، لكن بمجرد أن نظرتُ إليها انخفضت بضع مئات من الأقدام وبدأت تحوم في دوائر ضيقة حول سلسلة التلال، تمامًا كما يحوم الصقر حول فريسته قبل الانقضاض عليها. والآن أصبحتْ تطير على ارتفاع منخفض

للغاية، وعندئذٍ رآني المراقبُ الموجود على متنها. استطعتُ رؤيةَ واحدٍ من راكبيها الاثنين يتفحصني عبر نظارات.

فجأة بدأت ترتفع في دوائر لولبية سريعة، ثم اتجهتْ بسرعة نحو الشرق مرةً أخرى حتى صارت نقطةً في صفحة سماء الصباح الزرقاء.

جعلني هذا أفكر تفكيرًا جامحًا بعضَ الشيء؛ فقد حدَّد أعدائي مكاني، وبعدها قد أجد نفسي محاصرًا من كل جانب؛ فأنا لا أعرف إلى أي مدًى يصل نفوذُهم، لكني كنت على يقينٍ من أنه سيكون كافيًا. لقد رأتِ الطائرةُ دراجتي، وسيستنتجون أني سأحاول الهرب على الطريق السريع. في هذه الحالة ربما توجد فرصةٌ عبر الأراضي السبخة الموجودة على يميني أو على يساري. حركتُ الدراجة مائة ياردة بعيدًا عن الطريق السريع، وأدخلتُها في حفرة تكسوها الطحالب، حيث غاصت بين أعشاب إحدى البرك ونبات الحوذان المائي. بعد هذا تسلقتُ هضبة صغيرة فصرتُ أرى الواديَين جيدًا. لم يكن ثمة شيءٌ يتحرك على طول الشريط الأبيض الطويل الذي يمرُّ عبرهما.

كما قلتُ لم يكن ثمة سِترٌ في المكان بأكمله يمكن لفأر أن يختبئَ تحته. ومع مضي ساعات اليوم غمر المكانَ ضوءٌ عذب منعش حتى عبِق المكان بضوء شمس يُشبه ذلك الذي كان يشعُّ على مراعي جنوب أفريقيا. كان من الممكن لي أن أحب هذا المكان في ظروف أخرى، لكنه الآن بدا وكأنه يخنقني؛ فقد كانت هذه الأراضي السبخة الفسيحة بمثابة جدران سجن، والهواء المندفع من التلال كان بمثابة هواء الزنزانة.

رميتُ عملةً معدنية في الهواء وقلتُ إن الصورة تعني يمينًا، والكتابة تعني يسارًا، فسقطتْ على الصورة، ولهذا اتجهتُ شمالًا. بعد وقت قصير وصلتُ إلى حافة نتوء جبلي كان يمثل الجدار المحيط بالممر. رأيت الطريقَ السريع على بُعد عشرة أميال تقريبًا، ورأيت عليه شيئًا ما يتحرك، واستنتجتُ أن هذا الشيءَ هو سيارة. رأيتُ من وراء النتوء الجبلي أرضًا سَبَخة خضراء متعرجة، تصل في النهاية إلى وادٍ صغير مشجر.

كانت الفترة التي قضيتُها في البراري الأفريقية قد جعلتْ عينيَّ حادَّتَين كعينَي الحدأة، وبوسعي أن أرى أشياءَ يحتاج معظمُ الناس إلى تلسكوب لرؤيتها ... فرأيتُ من بعيد في أسفل المنحدر، على بُعد بضعة أميال، عددًا من الرجال يتقدمون إلى الأمام؛ مثل صفٍّ من مثيري الطرائد في رحلة صيد.

تواريتُ عن الأنظار وراء خط الأفق. كان هذا السبيلُ قد صار مسدودًا، وكان لا بد لي من تجربة الذهاب إلى التلال الأكبر حجمًا التي تقع جنوبًا وراء الطريق السريع. كانت

السيارة التي رأيتُها آخذةً في الاقتراب، لكنها كانت لا تزال بعيدة عني بمسافة كبيرة وأمامها بعضُ المنحدرات الشديدة. ركضتُ بقوة، منحنيَ الظهر في معظم الوقت، فيما عدا في التجاويف الموجودة في الأرض، وبينما كنت أركضُ ظللتُ أراقب حافة التل أمامي. هل كان هذا محضَ خيال، أم أنني رأيتُ بالفعل شخصين يتحركان في الوادي الصغير خلف المجرى المائي؟

إذا وجدتَ نفسك محاصرًا من جميع الجهات في قطعة من الأرض، فلا يوجد إلا سبيلٌ واحد للهرب. عليك ألا تُبارحَ هذه القطعةَ من الأرض، واترك أعداءك يبحثون عنك فيها ولا يعثرون عليك أبدًا. كان هذا تفكيرًا منطقيًّا سليمًا، لكن كيف يمكنني الهربُ دون أن يلاحظوا وجودي في هذا المكان الفسيح المنبسط؟ كنتُ على استعداد لأن أدفنَ نفسي في الطمي حتى عنقي أو أستلقيَ تحت سطح المياه أو أتسلقَ أطول الأشجار، لكن لم يكن ثمة عودٌ واحد من الخشب، وكانت فتحات المستنقع عبارةً عن بِرَك صغيرة موحلة، وكان النهر عبارةً عن مجرًى ضيق من الماء الشحيح. لم يكن يوجد إلا نباتُ الخلنج القصير ومنحنى التل المكشوف، والطريق السريع الأبيض.

ثم رأيتُ في منعطف ضيِّق للطريق، خلف كومة من الحجارة، عاملَ إصلاح الطُّرُق.

كان قد وصل للتوِّ، وكان يطرق بمطرقته في ضجر. نظر إليَّ بعينين تخلوان من أي تعبير وتثاءب.

قال، كأنه يُخاطب العالمَ بأسره: «لعنة الله على اليوم الذي تركتُ فيه الرعي! كنتُ حينها سيدَ نفسي، أما الآن فأنا عبدٌ للحكومة، محكومٌ عليَّ بالعمل على الطريق، عيناي تؤلمانني وظهري مقوَّس.»

رفع مطرقتَه وضرب بها حجرًا ثم أسقط الأداة وهو يسبُّ، ووضع يديه فوق أذنيه، وصاح: «الرحمة! إن رأسي ينفجر!»

كان إنسانًا همجيًّا، في نفس حجمي تقريبًا لكن مع انحناءٍ أكثر في ظهره، ولحيةٍ لم تُحْلَق منذ أسبوع تقريبًا، ونظارةٍ كبيرة ببروزين عند طرفيها.

صاح مرةً أخرى: «لا يمكنني فعلُ هذا. فليبلغ عني مسئول المعاينة فحسب. سأذهب إلى سريري.»

سألتُه ما الخطب، على الرغم من أن هذا كان واضحًا كفاية.

«المشكلة أني لم أتخلص من حالة الثمالة؛ فليلةُ أمس تزوجتِ ابنتي ميران وظلوا يرقصون حتى الساعة الرابعة في الحفل. أما أنا وبعض الفتيان الآخرين فقد جلسنا نشرب الخمر، وها أنا ذا. فأنا لا أتمالك نفسي حين أرى اللون الأحمر للنبيذ!»

وافقتُه على أنه ينبغي عليه أن يُلازم سريره، فقال وهو يندب حظَّه: «إن الكلام سهل، لكني حصلتُ على بطاقة بريدية بالأمس تقول إن مسئول المعاينة الجديد على الطرق سيقوم بجولة اليوم؛ فهو إما سيأتي ولن يجدني، أو أنه سيجدني ثَمِلًا، وفي كلتا الحالتين انتهى أمري. سأذهب الآن إلى سريري وأقول إني أشعر بتوعُّك، لكني أشكُّ في أن هذا سيساعدني؛ فهم لا يهتمون بصحة أمثالي.»

هنا خطرتْ لي فكرة. فسألتُه: «هل يعرفك مسئولُ المعاينة الجديد؟»

«كلا؛ فقد تقلَّد منصبه منذ أسبوع فقط. إنه يتحرك بسيارة صغيرة، ويمكنه التحري ومعرفةُ كلِّ شيء عن الإنسان.»

سألته: «أين منزلك؟» فأشار بإصبع مهتز إلى كوخ بجوار مجرى النهر.

قلت له: «حسنًا، عُدْ إلى سريرك ونمْ في سلام، وأنا سآخذُ مهمتك لفترة وجيزة من الوقت وسأقابل مسئول المعاينة.»

حدَّق في وجهي بنظرة خاوية؛ ثم حين استوعب عقلُه الفكرة أشرق وجهُه بابتسامة خاوية ثملة.

صاح: «يا لك من صديق رائع! يمكنك تدبُّرُ الأمر بسهولة؛ فقد انتهيتُ من هذه المجموعة من الحجارة، ولهذا ليس عليك إلا أن تكسر المزيد قبل حلول الظهيرة. فقط خُذ المعول، ودحرج قدرًا كافيًا من المعدن من المحجر أسفل الطريق حتى تصنع كومة أخرى هذا الصباح. أنا اسمي ألكسندر تيرنبول، وأعمل في هذه المهنة منذ سبع سنوات، وعملتُ من قبلها لعشرين عامًا في الرعي على نهر لايثن واتر. أصدقائي يدعونني إيكي، وأحيانًا سبيكي؛ لأني أرتدي نظاراتٍ بسبب ضعف نظري. ليس عليك سوى أن تتحدث بأسلوب مهذَّب مع مسئول المعاينة وتُخاطبه بلقب سيدي، وهذا سيُشعره بالسرور. وأنا سأعود في منتصف النهار.» أعارني نظارتَه وقبعته القديمة القذرة، وخلعتُ معطفي وصدريتي وياقتي وأعطيتهم له ليأخذَهم معه إلى المنزل، واستعرتُ منه كذلك غليونَه الطيني العفن كأحد ممتلكاته الإضافية. أوضحَ لي مهامي البسيطة ودون إضاعة المزيد من الوقت شرع يمشي الهُوَينَى نحو سريره. ربما كان السرير هو بغيتَه الأساسية، لكني أعتقد أن ثمة قليلًا من الخمر متبقٍّ في قاع إحدى الزجاجات. تمنيتُ أن يذهب في أمان إلى مخبئه قبل ظهور أصدقائي في المشهد.

بعدها شرعتُ في تهيئة ملابس الدَّور الذي سأؤديه؛ ففتحتُ ياقةَ قميصي الذي كان من مربعات بيضاء وزرقاء شائعة كالتي يرتديها مَن يحرثون الأرض، وكشفتُ عن رقبة

بُنِّيَّة اللون مثل أي عامل حِرَفي. شمرتُ أكمامي وأظهرتُ ساعدًا، يُشبه سواعد الحدادين، مسفوعًا من الشمس وخشنًا وبه ندبات قديمة. جعلتُ حذائي الطويل الرقبة وساقَي سروالي يكتسيان تمامًا باللون الأبيض من غبار الطريق، ورفعتُ سروالي وربطته بشريط أسفل الركبة. بعد هذا شرعتُ في العمل على وجهي؛ فصنعتُ بحفنة من التراب علامةً مائية حول رقبتي، المكان المتوقع أن يتوقف فيه اغتسال السيد تيرنبول المعتاد في أيام الآحاد. دلَّكتُ خديَّ المسفوعين بالشمس بكمية لا بأس بها من التراب. ولا شك في أنه يُفترض في عيني عامل إصلاح الطرق أن تكونَا ملتهبتين، ولهذا وضعتُ بعضَ التراب في عينَيَّ، وأسفر حكِّي لهما بقوة عن إحداث التأثير المطلوب.

كانت الشطائر التي أعطاها لي السير هاري قد ذهبتْ مع معطفي، لكن غداء عامل الطريق، الذي كان مربوطًا في منديل أحمر اللون، كان تحت تصرفي. أكلتُ باستمتاع بالغ العديدَ من قِطَع الفطائر السميكة والجبن وشربتُ القليل من الشاي البارد. وجدتُ داخل المنديل صحيفة محلية مربوطة بخيط ومكتوبًا عليها اسم السيد تيرنبول، من الواضح أنها أُعطيت له من أجل التفريج عنه في راحة منتصف النهار. أحكمتُ غلق الحزمة مرةً أخرى، ووضعتُ الصحيفة في مكان واضح بجواري.

لم يُرضني شكلُ الحذاء الطويل الرقبة، لكن بعد ضرب الحجارة به بقوة جعلتُ شكله يبدو كشكل سطح الحجر الصوان، وهو الشكل المميز لأحذية عمال الطرق. بعدها قضمتُ أظافري وظللتُ أحكُّها حتى أصبحتْ حوافُّها مشققةً وغير متساوية. إن الرجال الذين يعملون ضدي لا تفوتهم أيُّ تفاصيل. فككتُ رباطَ إحدى فردتَي حذائي وأعدتُ ربطَه في عقدة غير متقنة، وفككتُ الفردةَ الأخرى بحيث ظهر جوربي السميك الرمادي اللون من وجه الحذاء. بعد كل هذا لم أرَ أيَّ علامة لأي شيء على الطريق. لا بد أن السيارة التي كنتُ قد لاحظتُها منذ نحو نصف ساعة قد عادتْ أدراجها.

انتهيتُ من تنكُّري، وأخذتُ عربة اليد وبدأتُ رحلتي من وإلى المحجر الذي كان يبعد مائة ياردة.

تذكرتُ أن أحد أفراد الكشافة في روديسيا، والذي كان قد فعل العديدَ من الأشياء الغريبة في شبابه، أخبرني ذات مرة أن السرَّ في تأدية أحد الأدوار أن تتقمصَه بالكامل. فحسبما قال، لا يمكنك المتابعةُ في الأمر إلا إذا تمكنتَ من إقناع نفسك بأنك أنت هذا الشخص. ولهذا أبعدتُ عن ذهني جميعَ الأفكار الأخرى وركزتُ تفكيري في إصلاح الطريق. فكرتُ في أن الكوخ الأبيض الصغير هو بيتي، وتذكرتُ السنواتِ التي كنت قد

قضيتُها في الرعي على ضفاف نهر لايثن واتر، وشغلتُ ذهني في حُبِّي للنوم على سرير مربع وشرب زجاجة من الويسكي الرخيص. بعد كل هذا لم يظهر أيُّ شيء على الطريق الأبيض الطويل.

بين الحين والآخر كان يخرج خروفٌ هائمًا بعيدًا عن نباتات الخلنج ليحدِّق فيَّ، ونزل طائر مالك الحزين مندفعًا في تجمُّع لمياه النهر وشرع في صيد الأسماك، دون أن يُلاحظ وجودي وكأنني مجرد مَعْلَمٍ على الطريق. واصلتُ دحرجةَ حمولاتي من الحجارة على الطريق، بجدٍّ واجتهادِ إنسانٍ محترف في هذا العمل. سرعان ما شعرتُ بالحرِّ واستحال الترابُ الموجود على وجهي كتلًا صلبة ومتحجرة. كنتُ قد بدأت بالفعل أعدُّ الساعاتِ المتبقية على حلول المساء الذي ينتهي عنده عملُ السيد تيرنبول الرتيب. وفجأةً سمعتُ صوتًا هشًّا قادمًا من الطريق، وحين رفعتُ نظري رأيتُ سيارةً من طراز فورد بمقعدين يجلس فيها شابٌّ مستدير الوجه يرتدي قبعة بولر.

سألني: «هل أنت ألكسندر تيرنبول؟ أنا مسئول المعاينة الجديد لطرق المقاطعة. أنت تعيش في بلاكهوبفوت، ومسئول عن القطاع من لايدلوبايرز حتى ريجز، أليس كذلك؟ حسنًا! يا لها من مساحة جيدة من الطريق يا تيرنبول، وقد أصلحتَها على نحوٍ لا بأس به. وجدتُها ملساء أكثر مما ينبغي قليلًا على بُعد ميل من هنا، والحواف تحتاج إلى تنظيف. احرص على الاهتمام بذلك، طاب صباحُك، والآن ستعرفني حين تراني في المرة القادمة.»

من الواضح أن ملابسي كانت جيدةً بما يكفي لإقناع مسئول المعاينة المخيف هذا. واصلتُ عملي، ومع اقتراب النهار من فترة الظهيرة سعدتُ بوجود حركة مرور خفيفة. تقدمتْ عربةُ خباز صعودًا على التل، وابتعتُ منها كيسًا من بسكويت الزنجبيل ملأتُ به جيوب سروالي للطوارئ. بعدها مرَّ راعٍ مع مجموعة من الخراف، وأزعجني إلى حدٍّ ما بسؤالي بصوت مرتفع: «ماذا حدث لسبيكي؟»

أجبتُه: «في سريره يعاني من ألم في المعدة.» فتابع الراعي طريقَه. وقبل انتصاف اليوم مباشرةً جاءت سيارةٌ كبيرة على التل، ومرَّت بالقرب مني وتخطتني بنحو مائة ياردة. نزل راكبوها الثلاثة كما لو أنهم يريدون أن يُمدِّدوا أرجلهم، وتقدموا ببطء نحوي.

كنت قد رأيتُ اثنين منهم من قبل من نافذة النُّزل في جالوي أحدهما هزيل وأنيق وداكن البشرة، والآخر هادئ ومبتسم. أما الثالث فقد كان ذا ملامح ريفية، ربما كان طبيبًا بيطريًّا أو مزارعًا صغيرًا. كان يرتدي سروالًا قصيرًا واسعًا رديءَ الصنع، وكانت عيناه لامعتَين ويقظتين كعينَي دجاجة.

قال الأخير: «صباح الخير، يا لسهولة هذا العمل الذي تؤديه!»

لم أرفع نظري إليهم حين اقتربوا مني، والآن حين بادروني بالكلام، فردتُ ظهري ببطء وألم واضح، تمامًا مثل أيِّ عامل إصلاح طرق، وبصقتُ في الأرض بقوة، تمامًا مثل أي اسكتلندي من الطبقات الدنيا، ونظرتُ إليهم بثبات قبل أن أُجيبَ عليهم. وجدتُ أمامي ستَّ أعين لم يكن ليفوتَها أيُّ شيء.

قلتُ بأسلوب يميل إلى الوعظ: «ثمة أعمالٌ سيئة وأعمال أفضل. فيا ليتني كنتُ أعمل بمثل وظيفتك، تجلس طوال اليوم مرتاحًا على الوسائد دون أيِّ عمل؛ فأمثالُك بسياراتهم الفارهة هم من يُخربون الطرق التي أُصلحها! لو كان لنا حقوق، لكان على أمثالك أن يُصلحوا ما يفسدونه.»

كان الرجل ذو العينين اللامعتين ينظر إلى الصحيفة الملقاة بجوار حزمة تيرنبول.

قال: «أرى أنك تحصل على صحيفتك في وقت معقول.»

نظرتُ إليها بعدم اكتراث وقلتُ: «أجل، في وقت معقول. فبالنظر إلى أن هذه الصحيفة صدرت يوم السبت الماضي فأنا متأخر بستة أيام فقط.»

التقطَها وحدَّق فيما هو مكتوب في أعلى الصفحات، ووضعها أرضًا مرةً أخرى. ظلَّ أحدُ الرجلين الآخرين ينظر إلى حذائي الطويل الرقبة، وتفوَّه بكلمة بالألمانية لفتتْ نظرَ المتحدث إليهما، وقال: «لديك ذوقٌ رفيع في الأحذية الطويلة الرقبة؛ فهذا الحذاء من صنْع إسكافي ريفي.»

قلت بسرعة: «كلَّا، هذا غير صحيح؛ فقد صُنع في لندن. لقد حصلتُ عليه من السيد النبيل الذي أتى إلى هنا في العام الماضي من أجل الصيد. ليتني أتذكر اسمه.» وحككتُ رأسي كأني نسيتُ اسمه. تحدَّث الرجل الأنيق بالألمانية مرةً أخرى، فقال المتحدث: «هيا لنواصل طريقنا، هذا الرجل لا غبارَ عليه.»

وطرحوا سؤالًا أخيرًا.

«هل رأيتَ أحدًا يمرُّ في وقت مبكر من صباح اليوم؟ ربما كان يستقلُّ دراجة أو ربما كان يسير على قدميه.»

كدتُ أسقطُ في الفخ وأُخبرهم بقصة راكب دراجة مرَّ مسرعًا في الطريق في ضوء الفجر الرمادي. لكن انتابني شعورٌ بوجود خطر في هذا، فتظاهرتُ بالتفكير العميق.

قلت: «لم أستيقظ اليوم في وقت مبكر للغاية؛ فكما ترون، لقد تزوجتِ ابنتي ليلة أمس، وسهرْنا لوقت متأخر؛ لهذا خرجتُ من منزلي في نحو السابعة صباحًا ولم أرَ أحدًا

على الطريق حينها. ومنذ مجيئي إلى هنا لم أرَ إلا الخباز وقطيع راتشيل، بالإضافة إليكم أيها السادة.»

أعطاني أحدُهم سيجارًا، فشممتُها بحذر ووضعتُها في حزمة تيرنبول. ركبوا سيارتَهم وغابوا عن أنظاري في غضون ثلاث دقائق.

شعرتُ براحة عارمة تغمر قلبي، لكني واصلتُ جرَّ حجارتي في عربة الجر. وكان من الحكمة أنني فعلت ذلك؛ إذ بعد عشر دقائق عادت السيارة، ولوَّح لي أحدُ راكبيها؛ فهذه الجماعة لا تترك شيئًا للصدفة.

انتهيتُ من تناول خبز تيرنبول وجُبنه وسرعان ما انتهيت من أمر الحجارة. كانت الخطوة التالية هي ما حيَّرني؛ فلم يكن بوسعي الاستمرارُ في عمل إصلاح الطرق هذا لوقت طويل؛ فقد أبقت العنايةُ الإلهية الرحيمة تيرنبول داخل منزله، لكنه إن ظهر على الساحة فستكون ثمة مشكلة. كنتُ أعلم أن الحصار ما زال مُحكمًا حول الوادي الصغير، وإذا سرتُ في أيِّ اتجاه فسألتقي بأناس يستجوبونني. إلا أنني لا بد أن أخرج من هذا المكان؛ فلا يمكن لأعصاب أيِّ إنسان أن تتحمل تعرضَه لتجسس الآخرين عليه لأكثرَ من يوم واحد.

ظللتُ في موقعي حتى الساعة الخامسة، وبحلول ذلك الوقت كنتُ قد عزمتُ على الذهاب إلى كوخ تيرنبول عند هبوط الليل وتجربة حظِّي في محاولة عبور التلال في جنح الظلام. ولكن فجأة ظهرتْ سيارةٌ جديدة على الطريق، وخفَّفتْ من سرعتها على بُعد نحو ياردة أو ياردتين مني. كانت ريحٌ جديدة قد هبَّت، وأراد راكب السيارة أن يُشعلَ سيجارة. كانت سيارةً سياحية، وكان مقعدها الخلفي مليئًا بمجموعة متنوعة من حقائب السفر. كان يستقلُّها رجلٌ واحد فقط، وبالصدفة الرائعة كنتُ أعرفه. كان اسمه مرمادوك جوبلي، وكان عارًا على البشرية؛ فقد كان سمسارًا دمويًّا، يُجري أعماله بتملق الأبناء البكر وأقرانهم من الشباب الأغنياء والسيدات المسنات الحمقاوات. كان «مارمي»، حسبما فهمت، شخصيةً مألوفة في حفلات الرقص، ومسابقات البولو والمنازل الريفية. كان بارعًا في الترويج للفضائح، وكان مستعدًّا للزحف ميلًا على وجهه من أجل أيِّ شخص يحمل لقبًا أو يمتلك مليونًا. تعرفتُ مهنيًّا على شركته حين أتيتُ إلى لندن، وكان لديه من اللياقة ما يكفي لأن يدعوني إلى العشاء في ناديه. هناك ظلَّ يتفاخر ويتباهى على نحو مفرط، وظلَّ يتحدث عن الدوقات اللاتي يعرفهنَّ حتى أعياني تفاخرُه وخيلاؤه. سألتُ رجلًا فيما بعدُ لماذا لم يركله أحدٌ، وكان ردُّه أن الرجال الإنجليز يحترمون الجنس الأضعف.

على أي حال، ها هو أمامي الآن، متأنق في ملبسه، ويقود سيارة فخمة جديدة، ومن الواضح أنه في طريقه إلى زيارة بعضٍ من أصدقائه الرفيعي المستوى. سيطرت عليَّ لحظةُ حمق مفاجئة، وفي ثانية كنت قد قفزتُ في المقعد الخلفي من السيارة وأمسكته من كتفه.

قلتُ طربًا: «أهلًا يا جوبلي، مرحبًا يا صديقي!» انتابه ذعرٌ هائل، وسقط فكُّه السفلي وهو يُحدِّق فيَّ، وقال وهو يلهث: «مَن أنت بحق الشيطان؟»

قلتُ: «اسمي هاناي، من روديسيا، أتذكرُ؟»

قال والكلام يكاد يخنقه: «يا إلهي الرحيم، القاتل!» قلت له: «بالضبط. وستحدث جريمةُ قتلٍ ثانية، يا عزيزي، إن لم تفعل ما أقوله لك. أعطني معطفَك هذا، وهذه القبعة أيضًا.»

فعل ما طُلِب منه؛ إذ كان الذعرُ يعمي بصيرتَه. ارتديتُ معطف القيادة الأنيق الذي أعطاني إياه فوق سروالي القذر وقميصي الرديء، وأغلقتُ أزراره حتى رقبتي وبذلك أخفيتُ عيوب ياقتي. وضعتُ القبعة على رأسي، وأكملتُ مظهري الفاخر بارتداء قفازاته. وهكذا تحوَّل عاملُ إصلاح الطريق المغبر في لحظة إلى واحد من أكثر سائقي السيارات أناقة في اسكتلندا. وضعتُ على رأس السيد جوبلي قبعة تيرنبول الرديئة وأخبرتُه أن يُبقيها على رأسه.

بعد ذلك حولتُ اتجاه السيارة بقدرٍ من الصعوبة؛ فقد كانت خطتي أن أعودَ في الطريق الذي كان قد جاء منه؛ إذ كان من المحتمل أن المراقبين سيتركون هذه السيارة تمرُّ دون الالتفات إليها؛ كونهم قد رأوها من قبل، كما أن هيئة مارمي كانت تختلف تمامًا عن هيئتي.

قلتُ له: «والآن يا طفلي العزيز، اجلسْ هنا ساكنًا وكن ولدًا مطيعًا. أنا لا أُضمرُ لك سوءًا. كلُّ ما في الأمر أنني سأقترض سيارتَك لساعة أو اثنين. أما إذا مارست أيَّ خدعة، وقبل كلِّ شيء إذا فتحتَ فمَك، فأقسم بالرب في علاه أني سأكسر رقبتك، مفهوم؟»

استمتعتُ بتلك الرحلة المسائية بالسيارة؛ فقد قدتُها لنحو ثمانية أميال في الوادي، عبر قرية أو اثنتين، ولم يسعْني إلا ملاحظةُ وجود العديد من الأشخاص الغريبي المظهر على جانب الطريق؛ كان هؤلاء هم المراقبين الذين كانوا سينهالون عليَّ بالأسئلة لو كنتُ أرتدي ملابسَ مختلفة عما أرتديه أو برفقة أشخاص آخرين. ما حدث أنهم نظروا بعدم اكتراث نحوي، وأمسك أحدُهم بقبعته محييًا، ورددتُ عليه التحية بتهذيب.

مع حلول الظلام توجهتُ إلى وادٍ صغير جانبي تذكرتُ من الخريطة أنه يؤدي إلى جانبٍ غير مطروق من التلال. سرعان ما تركتُ القرى ورائي، ثم تخطيتُ المزارع، وتخطيتُ حتى الكوخ الواقع على جانب الطريق. وصلتُ الآن إلى أرض سَبَخة منعزلة حيث بدأ الليلُ يسدلُ ظلمةً على وهج غروب الشمس المنعكس على بِرَك المستنقع. توقفنَا في هذا المكان، وعكستُ اتجاه السيارة بلطف وأعدتُ إلى السيد جوبلي ممتلكاته.

قلتُ له: «ألف شكر، لقد فاقت فائدتُك ما كنتُ أظن، والآن يمكنك الذهابُ والبحث عن الشرطة.»

بينما كنتُ جالسًا على منحدر التل، شاهدتُ الضوء الخلفي للسيارة وهو يخبو في الأفق، وبدأت أفكر في أنواع الجرائم المتنوعة التي اختبرتُها حتى الآن؛ فعلى عكس الاعتقاد السائد، لم أكن قاتلًا، لكني صرتُ كذابًا متمرسًا، ومحتالًا وقحًا، وقاطعَ طريق لديه ميلٌ ملحوظ إلى السيارات الغالية.

الفصل السادس

# مغامرة عالم الآثار الأصلع

أمضيتُ الليل على مجموعة من الصخور على منحدر التل، يحجبُ عني الرياحَ جلمودٌ نمَا عليه نباتُ الخلنج طويلًا وناعمًا. كان الجوُّ باردًا؛ إذ لم يكن معي معطفٌ ولا صدرية؛ فقد تركتُهما مع تيرنبول، كما تركتُ في حوزته مفكرة سكادر وساعتي، والأسوأ من هذا كلِّه، غليوني وكيس التبغ. لم يكن معي إلا مالي الذي أخذتُه معي في حزامي، ونحو نصف رطل من بسكويت الزنجبيل في جيب سروالي.

التهمتُ نصفَ هذا البسكويت، وتقوقعتُ على نفسي بشدة بين نباتات الخلنج مما أعطاني نوعًا من الدفء. كانت معنوياتي قد ارتفعت، وبدأتُ أستمتع بلعبة الغميضة المجنونة هذه. حتى الآن كان يُحالفني حظٌّ عجيب؛ فبائع الحليب، وصاحب النُّزل المثقف، والسير هاري، وعامل إصلاح الطرق، ومارمي المغفل، كانوا جميعًا عناصرَ في حظي السعيد الذي ما كنتُ أستحقه. لقد أعطاني نجاحي الأول إلى حدٍّ ما شعورًا بأني سأنجو من هذا الأمر.

كانت مشكلتي الأساسية الآن هي أنني كنت أشعرُ بجوع شديد. حين يُطلق يهوديٌّ النارَ على نفسه في لندن ويُجرَى تحقيقٌ، عادةً ما تورِد الصحف أن المتوفى كان «يتمتع بتغذية سليمة». أذكر أني فكرتُ ذات مرة أنهم لا يمكن أن يُطلقوا عليَّ أبدًا هذا الوصف إذا دققتُ عنقي في حفرة من حفر المستنقع. استلقيتُ على الأرض وأنا أتعذب؛ إذ كان كل ما فعله بسكويت الزنجبيل هو أنه أكَّد ما كنتُ أشعر به من خواء مؤلم وأنا أتذكر كلَّ الطعام الرائع الذي لم أُقدِّر قيمته في لندن. تذكرتُ نقانق بادوك المقرمشة وشرائح لحم الخنزير المقدد الطيبة الرائحة التي كان يُعدُّها، وبيضه المسلوق بطريقة جميلة، الذي كثيرًا ما كنتُ أشمئز منه! تذكَّرتُ أيضًا شرائح اللحم التي كانوا يقدمونها في النادي، ولحمَ الخنزير الرائع الذي كان يُوضع على طاولة الأطعمة الباردة، الذي كانت روحي

تهفو إليه. دارتْ أفكاري حول جميع الأنواع المختلفة من الأطعمة وأخيرًا استقرتْ على شريحةِ لحم بقر أحصلُ بعدها على ربع جالون من شرابٍ كحوليٍّ مرٍّ ومعه طبقٌ من الجبن المذاب على الخبز المحمص. وفي خضمِّ تَوْقي الشديد لهذه الأطعمة الشهية غلبني النومُ. استيقظتُ وأنا أشعرُ ببرد قارس وتيبُّسٍ في جسمي بعد ساعة تقريبًا من بزوغ الفجر. استغرقتُ بعضَ الوقت حتى تذكرتُ أين أنا؛ إذ كنتُ متعبًا للغاية ورحتُ في نوم عميق. رأيتُ أولًا السماء الزرقاء الباهتة اللون عبرَ شبكة من نبات الخلنج، ثم حافة التل، ثم حذائي الطويل الرقبة الذي وضعتُه بعناية داخل شجيرة توت بري. رفعتُ جسدي على ذراعيَّ ونظرتُ إلى الأسفل نحو الوادي، وجعلتْني هذه النظرة أشرعُ في ارتداء حذائي وربطه بسرعة جنونية؛ إذ كان ثمة رجال في الأسفل، لا يبعدون عني بأكثر من ربع ميل، وكانوا ينتشرون متباعدين على جانب التل، ويضربون نباتات الخلنج بعِصيِّهم مفتشين فيها. لم يتباطأْ مارمي في سعيه إلى الانتقام.

زحفتُ إلى خارج مجموعة الحجارة تحت غطاء جلمود، ومن هناك دخلتُ في خندق ضحل مائل إلى أعلى سطح الجبل. أدَّى هذا بي إلى أخدود ضيق لجدول مائي، صعِدتُ عن طريقه إلى قمة النتوء الجبلي. من هذا المكان نظرتُ إلى الخلف، ورأيتُ أنهم لم يكتشفوا مكاني بعدُ. كان مَن يطاردونني يتحركون بتؤدة على جانب التل ويتجهون نحو الأعلى.

تركتُ الأفقَ من خلفي وركضتُ ربما نصف ميل، حتى أدركتُ أني كنتُ فوق الطرف العلوي للوادي الصغير. بعدها أظهرتُ نفسي، ولاحظني على الفور أحدُ المرابطين في الحصار، الذي نقل الخبر للآخرين. سمعتُ صيحاتٍ قادمة من الأسفل، ورأيت أن خطَّ البحث قد غيَّر اتجاهه. تظاهرتُ بالتراجع عبر الأفق، لكني بدلًا من ذلك عدتُ في الطريق الذي جئت منه، وفي غضون عشرين دقيقة كنتُ خلف النتوء الجبلي المطلِّ على المكان الذي كنتُ نائمًا فيه. من موقع المراقبة هذا اكتفيتُ برؤية المطاردة وهي تندفع على نحوٍ يائس إلى أعلى التلِّ الموجود في قمة الوادي الصغير وراء توقُّعٍ مضلِّل. كان أمامي أكثرُ من طريق وكان عليَّ الاختيار، فاخترتُ نتوءًا جبليًّا كان يُكوِّن زاوية مع النتوء الذي أقفُ عليه، وبهذا سرعان ما سأجعل واديًا صغيرًا عميقًا يفصل بيني وبين أعدائي. بعث كلُّ هذا الجهدِ الدفءَ في أوصالي، وبدأتُ أستمتعُ بوقتي على نحوٍ مذهل. مع استمراري في طريقي أفطرتُ بقِطَع بسكويت الزنجبيل المتربة المتبقية.

كانت معرفتي بالريف قليلةً للغاية، ولم يكن لديَّ أدنى فكرة عما سأفعله. وضعتُ ثقتي في قوة ساقيَّ، لكني كنتُ مدركًا تمامًا بأن هؤلاء الذين يلاحقونني سيكونون على

معرفة تامة بطبيعة الأرض، وأن جهلي بها سيمثِّل عائقًا كبيرًا لي. رأيتُ أمامي بحرًا من التلال، ترتفع عاليًا باتجاه الجنوب، ولكنها تتفرع جهة الشمال إلى نتوءات جبلية عريضة تفصل بين أودية واسعة ومسطحة. بدا أن النتوء الذي اخترتُه يهبط بعد نحو ميل أو اثنين إلى أرض سَبَخة تكمنُ مثل جيب بين المرتفعات. بدا هذا اتجاهًا جيدًا للسير فيه أكثر من أي اتجاه آخر.

كانت خدعتي قد منحتني تقدُّمًا مقبولًا بنحو عشرين دقيقة وكان عرض الوادي الصغير ورائي قبل أن أرى طلائعَ مَن يطاردونني. كان من الواضح أن الشرطة استدعتْ مواهبَ محلية لتُساعدَهم؛ فقد كان يبدو على الرجال الذين أستطيعُ رؤيتَهم مظهر رعاة الأغنام وحرَّاس الطرائد. صاحوا عند رؤيتي ولوَّحتُ لهم بيدي. هبط اثنان منهم في الوادي الصغير وبدآ يتسلقَان النتوء الجبلي الذي كنتُ موجودًا عليه، بينما واصل الآخرون السيرَ على جانبهم من التل. شعرتُ كما لو كنتُ أشارك في لعبة مطاردة مدرسية. إلا أنني ما لبثتُ أن بدأتُ في فقدان شعوري بأنها لعبة؛ فهؤلاء الذين يلاحقونني كانوا رجالًا أقوياءَ في موطنهم. حين نظرتُ خلفي رأيتُ أن ثمة ثلاثةً فقط يلاحقونني مباشرةً، وخمَّنتُ أن الآخرين اتخذوا طريقًا آخر ليقطعوا الطريق عليَّ؛ فمن الممكن إلى حدٍّ كبير أن تكون قلةُ معرفتي بالمنطقة المحلية سببًا في هلاكي؛ ولهذا قررتُ الخروج من هذه الأودية الصغيرة المتشابكة إلى جيب الأرض السَّبَخة التي كنتُ قد رأيتُها من القمة. يجب عليَّ زيادةُ المسافة بيني وبينهم حتى أستطيعَ التخلص منهم، واعتقدتُ أن بإمكاني فعلَ هذا إن استطعتُ أن أجد الأرض المناسبة لهذا الغرض. لو كان ثمة غطاءٌ من نوعٍ ما لكنت حاولتُ مراوغتَهم بعضَ الشيء، لكن على هذه المنحدرات المكشوفة كان بإمكانك رؤيةُ ذبابة على بُعد ميل. وضعتُ أملي في طول ساقيَّ ورجاحة عقلي، لكني كنتُ بحاجة إلى أرض أسهل في السير من أجل ذلك؛ إذ إنني لم أعتَدْ تسلُّقَ الجبال. كم كنتُ أتوقُ لمُهْرٍ أفريقيٍّ جيد!

تحركتُ بنشاط كبير وتركتُ النتوء الذي كنتُ أقف عليه وتوجهتُ إلى الأسفل نحو الأرضِ السَّبَخة قبل أن تظهرَ أجسادُ أيٍّ من المطارِدين في الأفق من ورائي. عبرتُ جدولًا مائيًّا وخرجتُ منه على طريقٍ رئيسيٍّ كان يُشكِّل ممرًّا بين واديَين صغيرَين. كلُّ ما كنتُ أراه أمامي كان عبارةً عن حقل كبير من الخلنج يصعد إلى الأعلى نحو قمة جبلية يُكلِّلُها غطاءٌ غريب من الأشجار. وجدتُ في الحاجز الصخري الموجود على جانب الطريق بوابةً، ومنها كان ممرٌّ مغطًّى بالأعشاب يؤدي إلى الجزء الأول من الأرض السَّبَخة.

قفزتُ من فوق الحاجز الصخري واتَّبَعته، وبعد بضع مئات من الياردات، بمجرد اختفاء الطريق السريع عن الأنظار، اختفى العشبُ وتحوَّل إلى طريق ممهد، من الواضح أنه حَظيَ ببعض العناية. من الواضح أن هذا الطريق كان يؤدي إلى أحد المنازل، وبدأتُ أفكِّر في أن أسلكَه إلى ذلك المنزل. حتى الآن كان الحظُّ قد خدمني كثيرًا، وربما كانت فرصتي المثلى تقبع في هذا المنزل النائي. على أي حال، كانت ثمة أشجارٌ هناك، وهذا يعني وجودَ ما أحتمي به.

لم أسلك الطريق، ولكني سرتُ بحذاء الجدول المائي الذي حدَّه من اليمين، حيث ازداد نباتُ السرخس عمقًا، وشكَّلتِ الضفافُ المرتفعة حاجزًا معقولًا. كان من الجيد أنني فعلتُ هذا؛ إذ ما لبثتُ أن دخلتُ في هذا التجويف حتى رأيتُ، حين نظرتُ إلى الخلف، المطاردين وهم يعتلون النتوءَ الجبلي الذي كنتُ قد نزلتُ منه.

بعد ذلك لم أنظر ورائي؛ إذ لم يكن عندي وقتٌ. لقد ركضتُ بحذاء الجدول، وزحفتُ فوق الأماكن المكشوفة، وخضتُ معظم الوقت في ماء الجدول الضحل. وجدتُ كوخًا مهجورًا به صفُّ أكوام شبحية من الخث وحديقة تُغطِّيها الأعشابُ البرية. بعدها وجدتُ نفسي بين قشٍّ حديث العهد، وسرعان ما وصلتُ إلى حافة مزرعة من نبات التنوب الذي يتطاير في الرياح. من هناك رأيتُ مداخنَ منزل يتصاعد منها الدخانُ على بُعد بضع مئات من الياردات على يساري. تركتُ جانبَ الجدول المائي، وعبرتُ حاجزًا آخرَ، وعلى الفور وجدتُ نفسي في مرجة وعرة. أخبرتني نظرةٌ خاطفة إلى الخلف أنني ابتعدتُ عن أنظار المطاردين الذين لم يعبروا بعدُ أولَ جزء من الأرض السَّبَخة.

كانت المرجةُ وعرةً للغاية، وقُطعت حشائشُها بمنجل بدلًا من جزازة العشب، وزُرعت فيها أحواضٌ من شجر الورد غير النامي. وقف زوجٌ من طائر الطهيوج، وهي طيور من غير المعتاد وجودها في الحدائق، منتصبًا عند اقترابي. كان المنزل الماثل أمامي عبارةً عن بيت مزرعة عادي، إلى جانب جناح أكثرَ فخامة مدهونٍ باللون الأبيض. أُلحق بهذا الجناح شُرفةٌ زجاجية، ورأيتُ عبر الزجاج وجهَ سيد عجوز يراقبني بوداعة. تخطيتُ الحدَّ المكوَّن من حصى التلِّ الخشن ودخلتُ عبر باب الشرفة المفتوح. وجدتُ في الداخل غرفةً رائعة يُغطِّي الزجاجُ أحدَ جانبَيها، وتُغطي كومةٌ من الكتب الجانبَ الآخر. رأيتُ المزيد من الكتب في غرفة داخلية. ووجدتُ على الأرض، بدلًا من الطاولات، وُضِعَتْ خزاناتٌ كتلك التي نراها في المتاحف، مُلئتْ بعملات معدنية وأدوات حجرية غريبة.

في المنتصف كان يوجد مكتبٌ بأدراج على الجانبين ويجلس إليه هذا الرجلُ العجوز الطيب، وأمامه بعضُ الأوراق والمجلدات المفتوحة. كان وجهُه مستديرًا ومشرقًا، مثل وجه السيد بيكويك، وكان يرتدي نظارةً كبيرة ترتكز على طرف أنفه، وكانت قمةُ رأسه لامعةً وصلعاء تمامًا مثل قارورة زجاجية. لم يتحرك قط حين دخلتُ إلى الغرفة، وإنما رفع حاجبَيه الهادئين وانتظر أن أتحدثَ.

لم تكن مهمةً سهلة، أن أُخبرَ شخصًا غريبًا تمامًا، في غضون خمس دقائق، عمن أكون وماذا أريد، وأن أحظَى بمساعدته. لم أحاول فعل هذا؛ فقد كان ثمة شيءٌ غريب في عينَي هذا الرجل الجالس أمامي، شيءٌ يوحي بالذكاء الشديد وعمق المعرفة، جعلني لا أستطيع أن أجد كلامًا لأقوله. فحدَّقتُ فيه وتمتمت فحسب.

قال ببطء: «تبدو في عجلة من أمرك يا صديقي!»

أشرتُ برأسي نحو النافذة؛ فقد كانت تطلُّ على الأرض السَّبَخة عبر فُتحة في المزرعة وتُظهر مجموعةً معينة من الأشخاص على بُعد نحو نصف ميل يشقُّون طريقهم بصعوبة بين الخلنج.

قال: «حسنًا، فهمتُ.» ووضع على عينيه منظارًا ميدانيًّا أخذ يتفحَّصُ عبره بصبر أولئك الأشخاص.

«هل أنت هارب من العدالة؟ حسنًا، سنخوض في تفاصيل هذا الأمرِ على مهلنا. في الوقت نفسه أكره أن يقتحمَ خصوصيتي رجلُ شرطة ريفي أخرق. ادخل غرفةَ مكتبي، وستجد أمامك بابَين. ادخل في الباب الذي إلى يسارك وأغلقه وراءك، وستكون في أمان تام.»

ثم أمسك هذا الرجل غير العادي بقلمه مرةً أخرى.

فعلتُ كما قيل لي، ووجدتُ نفسي في غرفة صغيرة مظلمة تفوح منها رائحةُ موادَّ كيميائية، ولا ضوءَ فيها إلا من نافذة متناهية الصغر أعلى أحد الجدران. كان الباب قد أُغْلِق من ورائي بصوت طقة كأنه بابُ خزينة. وهكذا عثرتُ مرةً أخرى على ملاذٍ غير متوقع.

مع ذلك لم أكن أشعرُ بالراحة. كان ثمة شيءٌ ما يُحيِّرُني بشأن هذا السيد العجوز وربما حتى يُشعرني بالرعب؛ فقد كان متساهلًا للغاية ومستعدًّا لملاقاتي، تقريبًا كما لو كان متوقعًا لمجيئي. كما أن عينَيه كانتا تشعَّان بذكاء مرعب.

لم يصل إلى مسامعي أيُّ صوت في ذلك المكان المظلم. بقدر ما كنتُ أعرف ربما كانت الشرطة تُفتِّشُ المنزل، وإن كانوا كذلك فسيريدون أن يعرفوا ما وراء هذا الباب. حاولتُ أن أتمالك أعصابي في صبر، وأن أتناسى الجوع الذي يعتصرني.

بعد هذا تبنيتُ وجهة نظر أكثر بهجة؛ فهذا السيد العجوز لا يمكن أن يحرمني من تناول وجبة طعام، وأخذتُ أتخيل إفطاري. كان سيسعدني تناولُ لحم الخنزير المقدد مع البيض، لكني أريد أفضل من هذا؛ أريد خاصرة من لحم الخنزير المقدد وخمسين بيضة. ثم، بينما كان لُعابي قد بدأ يسيل ترقبًا لهذه الوجبة، صدر صوتُ طقةِ مزلاجٍ وفُتح الباب.

خرجتُ إلى ضوء الشمس لأجد سيدَ المنزل جالسًا على مقعد وثير ذي مسندَين في الغرفة التي دعاها غرفةَ مكتبه، وأخذ يرمقني بعينَين يملؤهما الفضول.

سألتُه: «هل ذهبوا؟» قال: «لقد ذهبوا. أقنعتُهم بأنك قد عبرتَ التل؛ فأنا لا أحبُّ أن تحُولَ الشرطةُ بيني وبين شخص يُسعدني تكريمه. هذا الصباح يحمل لك الحظُّ السعيد يا سيد ريتشارد هاناي.»

بدا جفناه يرتجفان وهو يتحدث وكادا يسقطان على عينيه الرماديتين الحاذقتين. في لمح البصر تذكرتُ العبارة التي قالها سكادر حين وصف أكثرَ رجل يخشاه في العالم. كان قد قال عنه إن «جفنَيه يمكن أن يرتخيَا على عينيه كغمامة الصقر»، حينها رأيتُ أني قد دخلتُ مقرَّ العدو مباشرةً.

أول ما تبادر إلى ذهني هو أن أخنقَ هذا الشريرَ العجوز وأمضيَ إلى حال سبيلي. كان يبدو أنه توقَّع ما أنتويه؛ إذ ابتسم برفق، وأشار برأسه تجاه الباب خلفي.

استدرتُ فرأيتُ خادمَين كانَا يقفان خلفي وفي يدِ كلٍّ منهما مسدس.

كان يعرف اسمي، لكنه لم يكن قد رآني من قبل. مع تبادر هذه الفكرة على ذهني رأيتُ فرصةً ضئيلة للنجاة.

قلت له بحدَّة: «أنا لا أعرفُ ماذا تقصد. ومَن الذي تدعوه بريتشارد هاناي؟ اسمي إينسلي.» قال وهو ما يزال مبتسمًا: «وماذا في ذلك؟ لكن بالطبع لديك أسماءٌ أخرى. لن نتجادلَ بشأن اسمٍ.»

كنتُ أحاول تمالكَ نفسي الآن، وأدركتُ أن ملابسي لن تخذلني بأيِّ حال من الأحوال؛ فلم أكن أرتدي معطفًا ولا صدرية ولا ياقة. ارتسم على وجهي تعبيرٌ عابس، وهززتُ كتفيَّ.

«أعتقدُ أنك ستسلمني في النهاية، وأنا أُطلق على هذا خدعة دنيئة لعينة. يا إلهي! أتمنى لو لم أرَ هذه السيارة الملعونة، ها هو المال، وعليك اللعنة.» ورميتُ أربعةَ جنيهات ذهبية على الطاولة.

فتح الرجل عينيه قليلًا، وقال: «كلَّا، أنا لن أسلمَك؛ فأنا وأصدقائي سنسوِّي الأمور بأسلوب خاص معك، هذا كل ما في الأمر؛ فأنت تعرف أكثر مما ينبغي يا سيد هاناي. أنت ممثِّل بارع، لكنك لستَ ذكيًّا بما فيه الكفاية.»

تحدَّثَ بثقة بالغة، لكن كان بوسعي أن أرى بصيصًا من الشك يتسلل إلى ذهنه.

صحتُ قائلًا: «آه، أستحلفك بالرب أن تتوقف عن ثرثرتك هذه، فجميعُ القرائن ضدي؛ فأنا لم يحالفْني الحظُّ قط منذ أن رسوتُ على الشاطئ في ليث. ما الضير في حصول شخصٍ مسكين معدتُه خاوية على بعض المال الذي وجده في سيارة معطلة؟ هذا كل ما فعلتُه، ومن أجل ذلك ظللتُ مطاردًا ليومين من رجال الشرطة الملاعين أولئك على تلك التلال الملعونة. أقول لك إني سئمتُ هذا الأمر. بإمكانك أن تفعل ما يحلو لك، أيها الفتى العجوز! نيد إنسيلي لم تعُدْ لديه طاقةٌ للقتال.»

استطعتُ أن أرى أن الشكَّ قد بدأ يتملَّكه.

سألني: «هلا تفضلتَ وأخبرتني بقصة مغامرتك الأخيرة؟» قلتُ له بأنين شحَّاذ حقيقي: «لا يمكنني يا زعيم؛ فلم أتناول لقمة منذ يومين، أعطني طعامًا أسدُّ به رمقي، وبعدها سأُخبرك بالحقيقة كما يعلمها الرب.»

لا بد أن جوعي كان مرتسمًا على وجهي؛ فقد أشار إلى أحد الرجلين أمام الباب. فأحضر قطعةً من فطيرة باردة وكوبًا من الجعة، وانقضضتُ عليهما مثل الخنزير، أو بالأحرى مثل نيد إنسيلي؛ إذ إني كنتُ ما زلت متقمصًا شخصيتي. في وسط تناولي لوجبتي تحدَّث إليَّ فجأة باللغة الألمانية، لكني نظرتُ إليه بوجه خالٍ من التعبير تمامًا كأنه حجرٌ أصمُّ.

بعد ذلك أخبرتُه قصتي، وكيف أني جئتُ إلى ليث على متن سفينة آركإنجيل منذ أسبوع مضى، وأنني كنتُ أحاول الوصول برًّا إلى أخي في بلدة ويجتاون. أشرتُ بغموض إلى أن المال كان قد بدأ ينفد مني حين أسرفتُ في الشراب، وكنتُ قد صرت معدمًا حين وصلتُ إلى فُتحة في سياج من الشجيرات، وحين نظرتُ من خلالها رأيتُ سيارة كبيرة ملقاة في جدول مائي. تفحصتُها لأعرف ماذا حدث، فوجدتُ ثلاثة جنيهات ذهبية ملقاة على المقعد وواحدًا على أرضية السيارة. لم أجد أحدًا ولا أي علامة تدل على صاحبها؛

لذا وضعتُ المال في جيبي. إلا أن رجال القانون بطريقةٍ ما تعقبوا أثري؛ فحين حاولتُ صرْفَ جنيهٍ ذهبيٍّ في متجر خباز، صاحتِ المرأةُ طالبةً الشرطة، وفي وقت لاحق حين كنتُ أغسل وجهي في أحد الجداول، كادوا يُمسكون بي، ولم أنجُ منهم إلا حين تركتُ معطفي وصدريتي من ورائي.

صحتُ قائلًا: «يمكنهم استردادُ المال؛ فأنا لم أستفدْ منه في أي شيء. أولئك الأوغاد يتعقبون رجلًا مسكينًا بكل طاقتهم، أما لو كنتَ أنتَ يا زعيم مَن عثر على المال، ما كان أحدٌ ليُزعجَك.»

قال: «أنت كاذبٌ بارع يا هاناي.»

ثرتُ غضبًا وقلتُ: «توقف عن العبث معي، عليك اللعنة! قلتُ لك إن اسمي إنسيلي، ولم أسمع طوال حياتي قط عن أحدٍ يُدعى هاناي. فأنا أُفضِّل أن تُمسكَ بي الشرطةُ عاجلًا على أن أبقى معك أنت وهاناي هذا ورَجُليك بمسدسيهما ووجهيهما اللذَين يُشبهان وجوهَ القرود ... كلَّا، يا زعيم، أستمحيك عذرًا؛ فأنا لا أقصد هذا. أنا مَدين لك بما قدمتَه لي من طعام، وسأكون شاكرًا لك إن تركتني أذهب الآن وقد أصبحتِ الساحةُ آمنةً.»

كانت الحيرةُ الشديدة واضحةً عليه؛ فكما تعلمون لم يكن قد رآني من قبل، ولا بد أن مظهري قد تغيَّر كثيرًا عما كنتُ أبدو عليه في الصور، إن كانت معه صورةٌ لي؛ فقد كنتُ أنيقًا وحسنَ الهندام في لندن، أما الآن فأنا شخص متشرد رثُّ المظهر.

«لا أعتزمُ أن أدعَك تذهب. إن كنتَ كما تدَّعي، فقريبًا ما ستحصل على فرصة لتبرئة ساحتك. أما إن كنتَ كما أعتقدُ أنا، فلا أعتقدُ أنه ستطلع عليك شمسُ يوم جديد.»

دقَّ جرسًا فظهر خادمٌ ثالث من الشرفة.

قال له: «أريد السيارة اللانكستر في غضون خمس دقائق، سيكون موجودًا ثلاثةُ أشخاص على الغداء.»

بعدها نظر إليَّ بثبات، وكان هذا هو أصعبَ اختبار أواجهُه على الإطلاق.

كان ثمة شيءٌ غريب وشيطاني في هاتين العينين الباردتين الخبيثتين الخارقتين للطبيعة واللتين كانتا تشعَّان بذكاءٍ شيطانيٍّ هائل. لقد أبهرتاني مثل عينَي ثعبان لامعتين. تملَّكتْني رغبةٌ شديدة في أن أُلقيَ بنفسي تحت رحمته وأعرضَ عليه الانضمامَ إلى صفِّه، وإذا وضعتم في اعتباركم ما كنتُ أشعر به بشأن الأمر برمَّتِه، فستُدركون أن هذه الرغبةَ لا بد أنها كانت جسديةً تمامًا؛ إذ كانت عبارةً عن ضعف عقل تسحرُه وتسيطرُ عليه روحٌ أكثر قوة. إلا أنني تمكَّنتُ من إبعادها عني لدرجة أنني ابتسمتُ.

قلتُ له: «ستعرفني المرة القادمة يا زعيم.»

تحدَّث بالألمانية إلى أحد الرجال الواقفين عند المدخل وقال: «كارل، ستضع هذا الفتى في المخزن حتى أعود، وستكون مسئولًا أمامي عن حراسته.»

سارَا بي إلى خارج الغرفة وهما يُوجِّهان مسدسًا وراء كل أذن من أذنيَّ.

كان المخزن عبارةً عن غرفة رطبة تقع داخل المكان الذي كان بيتَ المزرعة القديم. لم يكن يوجد بساطٌ فوق الأرض غير المستوية، ولا أيُّ شيء يمكن الجلوسُ عليه فيما عدا مقعد مدرسي. كانت الغرفةُ حالكةَ الظلام؛ إذ كانت مصاريعُ النوافذ مغلقةً بإحكام بالغ. تبينتُ باللمس أنه أمام الجدران كانت توجد صناديقُ متراصةٌ وبراميلُ وأكوامٌ من بعض الأشياء ثقيلة الوزن. كانت تفوح من المكان بأكمله رائحةُ العفن والإهمال. أدار حارساي المفتاحَ في الباب لإغلاقه، واستطعتُ سماعَ حركة أقدامهما وهما يقفان بالخارج للحراسة.

جلستُ في تلك الظلمة الباردة في حالة ذهنية بائسة إلى أقصى حدٍّ. كان الرجل العجوز قد غادر في سيارة لإحضار الشريرَين اللذَين كانَا قد استجوباني بالأمس. كان هذان الرجلان قد شاهداني في شخصية عاملِ إصلاح الطريق، وسيتذكَّراني؛ لأنني كنتُ أرتدي الملابسَ ذاتَها. ماذا كان عاملُ إصلاح الطريق يفعل على بُعد عشرين ميلًا من نطاق عمله، ولماذا تُلاحقه الشرطة؟ يمكن لسؤال أو اثنين أن يجعلاهما يتوصلَّان إلى الحقيقة. من المحتمل أن يكونَا قد التقيَا بالسيد تيرنبول، وربما أيضًا مارمي؛ وعلى الأرجح سيمكنهما الربطُ بيني وبين السير هاري، وعندها ستصبح الأمور بأكملها واضحة وضوحَ الشمس. كيف يمكنني النجاةُ من هذا المنزل الريفي بوجود هؤلاء المجرمين الثلاثة وخادمَيهما المسلَّحَين؟

بدأتُ التفكيرَ بأسًى في الشرطة، التي تكدُّ الآن في تعقُّبِ أثري على التلال؛ فهم على أي حال من أبناء وطني ورجالٌ مخلصون، وسيكونون أكثرَ رحمة بي من هؤلاء الأجانب المتوحشين. إلا أنهم ما كانوا سيستمعون إليَّ. ولم يكن الشيطان العجوز ذو الجفنَين المرعبَين ليستغرقَ وقتًا طويلًا في التخلص منهم. فكَّرتُ في أنه ربما كان لديه بعضُ المعارف الفاسدين داخل الشرطة المحلية. ومن المرجَّح أن يكون قد حصل على خطابات من وزراء داخل الحكومة تنصُّ على حصوله على كافة التسهيلات التي تُمكِّنُه من التآمر على بريطانيا؛ فهذا هو الأسلوب المشئوم الذي تُدار به السياسة في وطننا.

سيعود الرجال الثلاثة من أجل تناول الغداء، وهذا يعني أن فترة انتظاري لن تزيدَ عن ساعتين. كنتُ أنتظرُ ببساطة لحظةَ هلاكي؛ إذ لم أكن أرى أيَّ سبيل للخروج من هذا

المأزق. تمنيتُ لو كنتُ أتحلَّى بشجاعة سكادر؛ إذ يمكنني الاعترافُ بأني لم أكن أشعر بأي قدر من الثبات والعزم. الشيءُ الوحيد الذي حفَّزني على المضيِّ قُدُمًا هو شعوري بغضب عارم. كنت أستشيطُ غضبًا من فكرة إحكام هؤلاء الجواسيسِ الثلاثة قبضتَهم عليَّ هكذا. لكَم تمنيتُ لو استطعتُ كسرَ رقبة أحدهم بأي طريقة كانت قبل أن يتخلصوا مني.

كلما كنتُ أفكر أكثر في الأمر كنتُ أزداد غضبًا، وكان عليَّ النهوضُ من مكاني والسير في أرجاء الغرفة. حاولتُ فتحَ مصاريع النوافذ، لكنها كانت من النوع الذي يُوصَد بمفتاح، ولم أتمكَّنْ من تحريكها. من الخارج أتى صوتٌ خافت لنقنقة دجاج في الشمس الدافئة. بعد ذلك بدأتُ أتلمَّسُ الأكياس والصناديق. لم أتمكن من فتْح الصناديق، وبدا أن الأكياس كانت مملوءةً بأشياءَ مثل طعام الكلاب الذي تفوح منه رائحةُ القرفة. إلا أنني في أثناء سيري في أرجاء الغرفة لاستكشافها وجدتُ مقبضًا في الجدار بدا أنه يستحقُّ الفحص.

كان هذا بابَ خزانة في الحائط، وهو ما يُطلق عليه الاسكتلنديون «خزانة جدارية»، وكانت موصدةً. هززتُها، وبدا لي أنها كانت واهية إلى حدٍّ ما. بسبب عدم وجود شيء أفضل يمكنني فعلُه بذلتُ قوَّتي في التعامل مع هذا الباب، مُحْكِمًا سيطرتي على مقبضه بأسناني. عندئذٍ أصدر باب الخزانة صوتَ تحطُّمٍ اعتقدتُ أنه سيدفع حرَّاسي إلى المجيء والاستفسار عما كان يحدث. انتظرتُ قليلًا، ثم بدأتُ في استكشاف أرفف الخزانة.

كان يوجد عددٌ كبير من الأشياء الغريبة بداخلها. وجدتُ عودًا أو عودين من الثقاب القديم داخل جيوب سروالي فأشعلتُهما. احترقَا في ثانية، لكنهما أظهرَا لي شيئًا واحدًا. كان يوجد عددٌ قليل من المصابيح اليدوية الكهربائية على أحد الأرفف. التقطتُ واحدًا منها، ووجدتُ أنه يعمل بكفاءة.

ساعدني المصباحُ اليدوي الكهربائي على مزيد من الاستكشاف. كان يوجد زجاجاتٌ وأشياءُ غريبة الرائحة، كانت بلا شكَّ موادَّ كيميائية من أجل إجراء تجارب، كما كان يوجد ملفاتٌ من سلك نحاسي رفيع وحُزَم كثيرة من شرائح رقيقة من الحرير المعالج بالزيت. كان يوجد صندوقٌ من المتفجرات، والعديد من الخيوط لاستخدامها كفتيل. بعد ذلك عثرتُ في الجزء الخلفي من الرف على صندوق بُنِّيٍّ متين مصنوع من الورق المقوى، وبداخله وجدتُ صندوقًا خشبيًّا. استطعتُ انتزاع غطائه عنوة، فوجدتُ بداخله نصف دستة من القراميد الصغيرة الرمادية اللون، مساحةُ كلٍّ منها بضعُ بوصات مربعة.

أخرجتُ واحدًا منها، ووجدتُه يتفتَّت بسهولة في يدي. ثم شممتُه وتذوقته بلساني، وبعد ذلك جلستُ أفكر. لم يَضِعْ عملي مهندسَ تعدين هباءً، وعرفتُ مادة اللينتونيت حين رأيتُها.

يمكنني تفجيرُ هذا المنزل وتحويلُه إلى فتات باستخدام واحد فقط من هذه القراميد. كنتُ قد استخدمتُ هذه المادة في روديسيا وأعلم مدى قوَّتها. إلا أن المشكلة كانت تكمن في أن معرفتي لم تكن دقيقةً. لقد نسيتُ الشحنة المناسبة والطريقة الصحيحة لإعدادها، ولم أكن متأكدًا بشأن التوقيت. كذلك، لم يكن لديَّ إلا فكرة مبهمة بشأن قوَّتها؛ إذ على الرغم من استخدامي لها من قبل لم أكن أتعامل معها بنفسي.

إلا أنها كانت فرصةً، وفرصتي الوحيدة الممكنة. كانت مخاطرةً كبيرة، لكن في مقابلها كان ينتظرني واقعٌ أسودُ مؤكَّد. إذا استخدمتُها فإن الاحتمالاتِ، بحسب تقديري، كانت تقريبًا خمسةً إلى واحد في صالح أن أفجِّر نفسي ليطيرَ جسدي إلى قمم الأشجار، أما إذا لم أستخدمْها فالاحتمال الأكبر أن أجدَ نفسي في حفرة بطول ست أقدام في الحديقة بحلول المساء. كانت تلك هي الطريقة التي كان عليَّ أن أنظر بها إلى الأمر. كان المشهد قاتمًا في كلتا الحالتين، لكن على أي حال كانت أمامي فرصةٌ لإنقاذ نفسي وإنقاذ بلدي.

حين تذكَّرتُ سكادر الضئيلَ الحجم عقدتُ العزم. كانت هذه تقريبًا هي أبغضَ لحظة في حياتي؛ إذ لم أكن معتادًا على مثل هذه القرارات ذات الطابع البارد. ومع ذلك تمكَّنتُ من استجماع قوَّتي وعقدتُ العزم وتخلصت من الشكوك الفظيعة التي كانت تغمرني. توقفتُ ببساطة عن التفكير وتظاهرتُ بأني أُجري تجربة بسيطة كألعاب جاي فوكس النارية.

أحضرتُ فتيلةَ تفجير وثبَّتُّها في فتيلٍ طولُه قدمان. بعد ذلك أخذتُ ربعَ قرميدة من اللينتونيت ودفنتُها بالقرب من الباب تحت واحد من الأكياس في شقٍّ في الأرضية، مثبتًا فتيلَ التفجير فيها. على حدِّ علمي ربما كان نصفُ هذه الصناديق يحتوي على ديناميت. فإذا كانت الخزانةُ تحتوي على مثل هذه المتفجرات المميتة، فلِمَ لا تحتوي الصناديقُ عليها أيضًا؟ في هذه الحالة سنطير أنا والخادمان الألمانيان في رحلة مهيبة نحو السماء وقد يمتدُّ محيطُ الانفجار إلى نحو فدان حول القرية. كان ثمة خطرٌ أيضًا في أن يتسبَّبَ التفجيرُ في إشعال القراميد الأخرى داخل الخزانة؛ إذ كنتُ قد نسيتُ معظم ما كنت أعرفه عن مادة اللينتونيت. إلا أنه لم يكن ثمة فائدةٌ من البدء في التفكير في الاحتمالات الممكنة. كانت الاحتمالات مرعبة، لكن كان لا بد لي من تقبُّلِها.

احتميتُ تحت عتبة النافذة مباشرة، وأشعلتُ الفتيل. بعدها انتظرتُ لحظةً أو اثنتين. ساد صمتٌ مطبق في المكان عدا صوت خطوات أحذية طويلة ثقيلة في الممر، وصوت النقنقة الوديعة لدجاجات آتيًا من الخارج الدافئ. استودعتُ خالقي روحي، وتساءلتُ أين سأكون بعد خمس ثوانٍ.

بدا أن موجةً من الحرارة تندفع إلى الأعلى من الأرضية، وتعلقُ في الهواء في انتظار لحظة الانفجار. بعدها ظهر وميضٌ أصفرُ ذهبيٌّ اكتسى به الجدار المقابل لي، يصحبه دويٌّ هائل سحق رأسي سحقًا. وقع شيءٌ ما عليَّ، فأصابني في كتفي الأيسر.

بعدها أعتقدُ أني فقدتُ الوعي.

لا يمكن أن يكون غيابي عن الوعي قد استمرَّ أكثر من بضع ثوانٍ. شعرتُ بأني أختنقُ بفعل أدخنة صفراء كثيفة، وجاهدتُ حتى أستطيعَ النهوض على قدميَّ من بين الأنقاض. شعرتُ بهواء منعش يأتي من مكانٍ ما خلفي. كانت دعاماتُ النافذة قد سقطت، وأخذ الدخان يتدفق عبر الشقِّ غير المستوي إلى الخارج حيث كان نهارُ هذا اليوم الصيفي قد انتصف. عبرتُ فوق العتبة العليا المحطمة للنافذة، ووجدتُ نفسي أقف في ساحة بين ضباب كثيف ولاذع. شعرتُ بإعياء واعتلال بالغَين، لكني استطعتُ تحريكَ أطرافي، ومبتعدًا عن المنزل تقدمتُ مترنِّحًا في الضباب على غير هدًى.

سقطتُ في قناة طاحونة مائية صغيرة كانت تجري في قنطرة خشبية على الجانب الآخر من الساحة. أنعشني الماءُ البارد، وكان لا يزال لديَّ من حضور الذهن ما يكفي لأفكر في الهرب. شققتُ طريقي في القناة زاحفًا وسط الطين الأخضر الزلق حتى وصلتُ إلى عجلة الطاحونة. ثم تملَّصتُ عبر فُتحة محور العجلة إلى داخل الطاحونة القديمة وارتميتُ على كومة من القش. اشتبك مسمارٌ بمقعدة بنطالي مُخلفًا قطعةً صغيرةً من قماش بلون مزيج الخلنج.

كانت الطاحونةُ متوقفةً عن العمل منذ وقت طويل. كانت السلالم متعفنةً لفرط قِدَمِها، وفي العُلِّيَّةِ كانت الفئران قَدَّت ثقوبًا هائلة في الأرضية. أصابني الغثيانُ، وشعرتُ بدوار في رأسي، بينما بدا أن كتفي وذراعي اليسرى أُصيبتَا بالشلل. نظرتُ إلى خارج النافذة ورأيت ضبابًا ما زال يُخيِّم على المنزل والدخان يتصاعد من النافذة العليا. رحماك يا إلهي! لقد أضرمتُ النيران في المنزل؛ إذ كنتُ أسمع أصواتَ صيحات مرتبكة آتيةً من الجانب الآخر.

إلا أنه لم يكن لديَّ وقتٌ للتلكؤ؛ إذ كان من الواضح أن هذه الطاحونة مكانٌ سيئ للاختباء؛ فأيُّ شخص يبحث عني كان سيتبع القناة الصغيرة بطبيعة الحال، وكنتُ متأكدًا أن البحث عني سيبدأ بمجرد أن يكتشفوا أن جثتي ليست داخلَ المخزن. رأيت من نافذة أخرى برجَ حمام صخريًّا قديمًا قائمًا على الجانب البعيد من الطاحونة. إذا استطعتُ الذهاب إلى هناك دون أن أترك أثرًا، فربما أعثر فيه على مكان جيد للاختباء؛ إذ ارتأيتُ أن أعدائي، إذا ظنُّوا أن بوسعي الحركة، فسيستنتجون أني قد ذهبتُ صوب الأراضي الريفية المفتوحة، وسيذهبون للبحث عني في الأرض السَّبَخة.

زحفتُ أسفل السلم المكسور، ناثرًا القشَّ من ورائي لأغطيَ آثار أقدامي. فعلتُ الأمرَ ذاتَه على أرضية الطاحونة، وعلى العتبة التي كان الباب يتدلَّى عندها من مفصلات مكسورة. حين استرقتُ النظر إلى الخارج، رأيتُ قطعةَ أرض جرداء مرصوفة بالحصى تفصل بيني وبين برج الحمام، لا يمكن أن تُرى عليها آثارُ الأقدام. ومن رحمة الخالق أنها كانت أيضًا مختفيةً وراء مباني الطاحونة فلا يمكن رؤيتُها من أي مكان من المنزل. تسللتُ عبر هذه القطعة من الأرض، ووصلتُ إلى الجزء الخلفي من برج الحمام وفتشتُ عن مكان للصعود.

كانت تلك واحدةً من أصعب المهام التي اضطلعتُ بها في حياتي؛ فقد كانت كتفي وذراعي تؤلماني ألمًا بالغًا، وكنتُ أشعر بالإعياء والدوار، حتى إنني كنتُ دومًا على وشك السقوط. إلا أنني تمكنتُ من الصعود بطريقةٍ ما. فتمكنتُ، بالاستعانة بالحجارة الناتئة والفجوات الموجودة في البناء وجذر لبلاب قوي، من الوصول إلى القمة في النهاية. كان يوجد حاجزٌ صغير وجدت خلفه مكانًا أستلقي فيه، وبعدها دخلتُ في إغماءة من الطراز القديم.

استيقظتُ ورأسي ملتهبٌ ووهجُ أشعة الشمس في وجهي. ظللتُ راقدًا دون حَراك لوقت طويل؛ إذ بدا أن هذه الأبخرةَ الكريهة قد أرْخَتْ مفاصلي، وغيَّبتْ عقلي. سمعتُ أصواتًا قادمة من المنزل لرجال يتحدثون بصوت أجشَّ وصوتَ محرك سيارة واقفة في مكانها. كانت ثمة فجوةٌ صغيرة في الحاجز الذي كنتُ قد زحفتُ إليه، ومنه استطعتُ رؤيةَ الساحة بعضَ الشيء. رأيتُ شخصين يخرجان من المنزل؛ الأول خادمٌ رأسُه مربوط، ثم شابٌّ أصغرُ سنًّا يرتدي بنطالًا قصيرًا واسعًا. كانَا يبحثان عن شيء ما، وتحركَا صوب الطاحونة. ثم رأى أحدُهما قطعةَ القماش المشبوكة في المسمار، وصاح على الآخر. عادَا كلاهما إلى المنزل، وأحضرَا معهما اثنين آخرَين لينظرَا فيها. رأيتُ الجسم الممتلئ لآسِري

السابق، وظننتُ أني تبيَّنتُ هيئةَ الرجل المتلعثم في الكلام. لاحظتُ أن جميعهم كانوا يُمسكون مسدسات.

ظلوا يفتشون الطاحونة لمدة نصف ساعة، كنت أستطيعُ سماعَهم وهم ينقرون على البراميل ويرفعون الألواح الخشبية البالية. بعد ذلك خرجوا منها، ووقفوا تحت برج الحمام مباشرةً يتجادلون بعنف شديد. تعرَّض الخادم ذو الضمادة إلى توبيخ عنيف. سمعتُهم وهم يعبثون بباب برج الحمام، وللحظة مرعبة تصورتُ أنهم سيصعدون. بعد ذلك عدلوا عن رأيهم، وعادوا إلى المنزل.

طوال فترةٍ بعد الظهيرة الطويلة الحارقة هذه ظللتُ مستلقيًا على ظهري على السطح. كان العطشُ هو المصدرَ الرئيسي لمعاناتي؛ فقد كان لساني جافًّا كالعصَا، وما زاد من سوء الوضع أنه كان بوسعي أن أسمعَ الماء البارد وهو يقطر من قناة الطاحونة. راقبتُ مجرى الجدول المائي الصغير آتيًا من الأرض السَّبَخة، وتبعتُه بخيالي إلى قمة الوادي الصغير، حيث لا بد أنه ينبعُ من نافورة باردة محاطة بسراخس باردة وطحالب. كنتُ على استعداد لأن أدفع ألف جنيه فقط لأغمسَ وجهي في ذلك الماء.

استطعتُ أن أرى جيدًا كاملَ دائرة الأرض السَّبَخة. رأيتُ السيارة تبتعد مسرعةً براكبَين اثنين، ورجلًا يتجه شرقًا على ظهر مُهْرٍ جبليٍّ. قدَّرتُ أنهم كانوا يبحثون عني، وتمنيتُ لهم أن يقضوا وقتًا طيبًا في مسعاهم.

إلا أنني رأيتُ شيئًا آخر أكثرَ إثارة للاهتمام؛ فقد كان المنزل يقع تقريبًا على قمة مساحة ضخمة من أرض سبخة فوق ما يُشبه الهضبة، ولم تكن توجد أيُّ نقطة أعلى منها أقرب من التلال الكبيرة التي كانت على بُعد ستة أميال. كانت القمةُ الحقيقية، كما ذكرتُ من قبل، عبارةً عن كتلة كبيرة معظمها من أشجار التنوب، مع بعض أشجار الدردار والزان. من فوق برج الحمام كنتُ تقريبًا في نفس مستوى قمم الأشجار، وكان بوسعي رؤيةُ كلِّ ما يقع وراءها. لم تكن هذه الأشجارُ كثيفة، وإنما فقط كانت على هيئة حلقة، وبداخلها مساحةٌ بيضاوية من غطاء نباتي أخضر، فكانت تبدو وكأنها ملعب كريكيت كبير.

لم أستغرق وقتًا طويلًا في تخمين طبيعة هذا المكان؛ لقد كان مطارًا صغيرًا، وسريًّا. لقد اختِير هذا المكانُ بدهاء بالغ. فبافتراض أن أحدًا ما راقب طائرةً تهبط فيه، كان سيظنُّ أنها قد ذهبتْ عبر التلِّ إلى ما وراء الأشجار. فبما أن المكان كان يقع على قمةٍ مرتفعٍ من الأرض وسط مدرج كبير، فإن أيَّ مراقب من أي اتجاه كان سيستنتج أن

الطائرة قد توارتْ عن الأنظار خلف التلِّ. فلا يمكن إلا لشخص على مسافة قريبة للغاية أن يُدرك أن الطائرة لم تذهب بعيدًا بل إنها هبطت في وسط غابة الأشجار. ربما كان سيستطيع شخصٌ يراقب بتليسكوب على أحد التلال الأعلى أن يكتشف الحقيقة، غير أن أحدًا لم يكن يذهب إلى هذه التلال عدا رعاة الأغنام، وهؤلاء لا يحملون نظاراتِ تجسُّس. حين نظرتُ من برج الحمام استطعتُ أن أرى من بعيد خطًّا أزرقَ علمتُ أنه البحر، وازداد غضبي حين فكرتُ بأن أعداءنا أقاموا برجَ المراقبة السريَّ هذا لاستهداف ممراتنا المائية.

بعد هذا فكَّرتُ في أنه إذا عادت الطائرةُ كان ثمة احتمالٌ يبلغ عشرةً إلى واحد أن يُكتشَف مكاني؛ لهذا ظللتُ طوال فترة بعد الظهيرة مستلقيًا وصليتُ من أجل أن يحلَّ الظلامُ، وغمرتني السعادةُ حين غابتِ الشمس وراء التلال الغربية الكبيرة وزحفتْ غشاوةُ الشفق على الأرض السَّبَخة. تأخرتِ الطائرةُ في العودة، وكان الشفقُ قد قطع شوطًا كبيرًا حين سمعتُ صوتَ خفقان أجنحتها ورأيتُها تنزلق إلى الأسفل عائدةً إلى مستقرِّها بين الأشجار. ظلَّت الأضواءُ تومض لفترة وجيزة ورأيتُ حراكًا كثيرًا جيئةً وذهابًا إلى المنزل، ثم حلَّ الظلام وساد الصمت.

حمدًا للرب على أنها كانت ليلةً حالكةَ الظلام؛ فقد كان القمرُ في ربعه الأخير ولم يكن يظهر إلا في وقت متأخر من الليل. اشتدَّ عطشي حتى إنني لم أَعُدْ قادرًا على التلكُّؤ أكثر من هذا؛ لذا في نحو الساعة التاسعة، بحسب تقديري، بدأتُ أنزل من فوق البرج. لم يكن الأمرُ سهلًا، وسمعتُ وأنا في منتصف الطريق البابَ الخلفيَّ للمنزل يُفتَح، ورأيتُ وهجَ فانوس على جدار الطاحونة. طوال بضع دقائق مؤلمة ظللتُ متعلقًا بفرع اللبلاب ودعوتُ ألا يأتيَ هذا الشخصُ أيًّا مَن كان إلى البرج. بعدها اختفى الضوءُ، فهبطتُ بهدوء قدرَ استطاعتي على الأرض الصُّلبة للساحة.

زحفتُ على بطني مستترًا بحاجز من الحجارة حتى وصلتُ إلى حافة من الأشجار كانت تُحيط بالمنزل. لو كنتُ أعلم كيف يمكن تعطيلُ هذه الطائرة لكنتُ حاولتُ أن أفعل هذا، لكني أدركتُ أن أي محاولة ستكون على الأرجح عديمةَ النفع. كنتُ متأكدًا من وجود حماية من نوعٍ ما حول المنزل؛ لذا مضيتُ عبر الأشجار زاحفًا على يديَّ وركبتيَّ، أتحسَّسُ بعناية كلَّ بوصة أمامي. وكان من الحكمة أنني فعلتُ ذلك؛ إذ صادفتُ سلكًا على ارتفاع قدمَين تقريبًا من الأرض. لو كنتُ تعثَّرتُ في هذا السلك، لا شك أنه كان سيرنُّ جرسٌ ما في المنزل، وكانوا سيُمسكون بي.

بعد مائة ياردة أخرى عثرتُ على سلك آخر موضوعٍ بدهاء على حافة جدول مائي صغير. كانت الأرض السَّبَخة تقع وراء هذا الجدول، وفي غضون خمس دقائق كنتُ أخوض في نباتات السرخس والخلنج. سرعان ما وصلتُ إلى حافة المرتفع، في الوادي الصغير الذي كانت تنبع منه قناةُ الطاحونة، بعد عشر دقائق كنتُ أتجرَّع كمياتٍ هائلة من الماء المبارك. إلا أنني لم أتوقف عن السير إلا بعد أن أصبح يفصلني عن هذا البيت اللعين نصفُ دستة من الأميال.

الفصل السابع

# صياد السمك

جلستُ على قمة أحد التلال وأخذتُ أُقَيِّم وضعي. لم أكن أشعرُ بسعادة كبيرة؛ إذ إن ما كنتُ أشعرُ به من ألمٍ حادٍّ في جسدي يُعكِّر سعادتي الفطرية بنجاحي في الهرب؛ فقد أدَّت الأدخنةُ المتصاعدة من مادة اللينتونيت إلى تسميم جسدي إلى حدٍّ ما، ولم تعمل الساعاتُ التي أمضيتُها مستلقيًا على ظهري في برج الحمام على تحسين الوضع. كنتُ أُعاني من صداعٍ حادٍّ، وشعرتُ بإعياء شديد. كذلك كانت كتفي في حالة سيئة. في البداية ظننتُ أنها مجردُ كدمة، لكن بدا لي أنها متورمةٌ، ولم أكن أستطيعُ تحريكَ ذراعي اليسرى.

كانت خُطَّتي أن أتوجَّه إلى كوخ السيد تيرنبول، وأستعيدَ منه ملابسي، وخاصةً مفكرة سكادر، ثم أتَّجه إلى خط السكة الحديدية الرئيسي وأعود إلى الجنوب؛ فقد بدا لي أنه كلما أسرعتُ في التواصل مع هذا الرجل في وزارة الخارجية، السير والتر بوليفانت، كان هذا أفضل. لم أكن أعرف كيف سأتمكن من الحصول على أدلة أكثر مما لديَّ بالفعل. فعليه إما أن يصدِّقَ قصتي أو يرفضَها، وعلى أي حال، سأكون معه في أمانٍ أكثر من هؤلاء الألمان الأشرار. كنتُ قد بدأتُ أكنُّ مشاعرَ وُدٍّ تجاه الشرطة البريطانية.

كانت ليلةَ رائعة متلألئة بالنجوم، ولم أواجهْ صعوبةً كبيرة في العثور على الطريق؛ فقد عرفتْني خريطةُ السير هاري على طبيعة الأرض، وكلُّ ما كان عليَّ فعله أن أتجه درجة أو درجتين غرب الجنوب الغربي حتى أصل إلى الجدول المائي الذي كنتُ قد التقيتُ عنده بعامل إصلاح الطريق. طوال هذه الرحلات لم أعلم قط أسماءَ الأماكن، لكني أعتقد أن هذا المجرى المائي لم يكن سوى الجزء العلوي من نهر توويد. قدَّرتُ أني أبعُدُ حوالي ثمانية عشر ميلًا، وكان ذلك يعني أنني لن أتمكن من الوصول قبل الصباح؛ لذا كان عليَّ الاختباءُ نهارًا في مكانٍ ما؛ إذ كان مظهري شنيعًا للغاية وينبغي ألا يراه الناس في

ضوء الشمس. لم أكن أرتدي معطفًا، ولا صدرية، ولا ياقة، ولا قبعة، وكان بنطالي ممزقًا بشدة، وكان السواد يغطي وجهي ويديَّ بفعل الانفجار. وأظن أنه كان لديَّ محاسنُ أخرى؛ إذ كنتُ أشعرُ باحمرارٍ بالغ في عينَيَّ. إجمالًا لم يكن مظهري جيدًا ليراه أيُّ إنسان من المواطنين الأتقياء على طريق رئيسي.

بعد طلوع الصبح بقليل حاولتُ تنظيف نفسي في أحد الجداول بجوار تلة، ثم توجهتُ إلى كوخ أحدِ الرعاة؛ إذ كنتُ أشعرُ بالحاجة إلى تناول الطعام. لم يكن الراعي في البيت، وكانت زوجتُه وحدها فيه، ولم يكن لديهم جيرانٌ لمسافة خمسة أميال. كانت سيدةً وقورة كبيرةَ السن، وشجاعة؛ إذ إنه على الرغم من شعورها بالرعب عند رؤيتي، كان لديها فأسٌ جاهز لتستخدمَه مع أيِّ شخص يقصد شرًّا. أخبرتُها أني قد تعرضتُ للسقوط، ولم أخبرها كيف، ورأتْ من مظهري أني أُعاني من الإعياء الشديد. مثل أي فاعل خير حقيقي، لم تطرح أي أسئلة، وإنما أعطتْني إناءً من الحليب مع القليل من الويسكي، وسمحتْ لي بالجلوس قليلًا بالقرب من الموقد في مطبخها. أرادتْ أن تغسل كتفي، لكنها كانت تؤلمني ألمًا شديدًا ولم أكن لأدعَها تلمسها.

لا أدري ماذا ظنَّتْ بشأني، فربما حسبتْني لصَّ منازلَ تائبًا؛ إذ عندما أردتُ أن أدفع لها نظيرَ الحليب وقدَّمْتُ لها جنيهًا ذهبيًّا كان أصغرَ عملة أحملها، هزَّت رأسَها وقالت لي شيئًا عن «إعطائها إلى مستحقِّيها». اعترضتُ على قولها هذا بشدة وأعتقدُ أنها صدَّقتْ أني شريف، لأنها أخذتِ المال، وأعطتني مقابلَه وشاحًا صوفيًّا اسكتلنديًّا تقليديًّا ثقيلًا وقبعة قديمة لزوجها. أرتني كيفية لفِّ الوشاح الصوفي حول كتفيَّ، وحين غادرتُ ذلك الكوخ كان مظهري يُشبه تمامًا الرجال الاسكتلنديين الذين تراهم في الرسوم المصاحبة لقصائد الشاعر برنز. إلا أنني على أي حال كنتُ ألبس ما يسترني نوعًا ما.

كان هذا مناسبًا؛ إذ حدث تغيرٌ في الطقس قُبيل الظهر وهطلتْ أمطارٌ غزيرة. عثرتُ على ملجأ تحت صخرة ناتئة عند انحناء نهرٍ صغير، حيث شكَّلتْ كومةٌ منجرفة من السرخس الذابل مرقدًا مقبولًا. تمكنتُ في هذا المكان من النوم حتى حلول الليل، واستيقظتُ وأنا أشعر بتقلُّصٍ عضليٍّ وألمٍ شديدَين؛ إذ كانت كتفي تؤلمني ألمًا حادًّا كألم الأسنان. تناولتُ كعكةَ الشوفان والجبن اللَّذَين كانت قد أعطتْهما لي الزوجةُ العجوز وبدأتُ التحركَ مجدَّدًا قبل حلول الظلام الدامس.

لا داعي لذكْر ما اختبرتُه من مآسٍ في تلك الليلة بين التلال الرطبة. لم تكن ثمة نجومٌ أسترشدُ بها، وكان لا بد لي من بذْل أقصى ما في وسعي لمعرفة الطريق مما أتذكره من

الخريطة. ضللتُ طريقي مرتين، وتعرضتُ لسقطات سيئة في مستنقعات الخث. لم يكن يفصلني عن وِجهتي إلا عشرةُ أميال لو كنتُ سرتُ في خط مستقيم، لكن ما ارتكبتُه من أخطاء جعل المسافةَ تقترب من عشرين ميلًا. أكملتُ الجزء الأخير من الرحلة بعزم شديد وشعور بعدم اتزان ودوار شديدَين في رأسي. إلا أنني تمكنتُ من إكمالها، وفي الساعات الأولى من الفجر كنتُ أدقُّ على باب السيد تيرنبول. كان الضبابُ مطبقًا وكثيفًا، ولم أكن أستطيعُ رؤية الطريق العام من كوخه.

فتح السيد تيرنبول لي الباب بنفسه ولم يكن مخمورًا وكان مظهرُه يوحي بأكثر من كونه غيرَ مخمور؛ فقد كان متأنقًا يرتدي بِذْلة سوداء قديمة ولكنها كانت في حالة جيدة؛ وكان قد حلق ذقنه في وقتٍ أقصاه الليلة الماضية؛ وارتدى ياقة من الكتان، وكان يحمل في يده اليسرى إنجيلًا صغيرًا. لم يعرفْني في البداية.

سألني: «مَن أنت يا مَن تتجول هائمًا على وجهك هنا في صباح يوم العطلة؟»

لم أعُدْ أحسب الأيام على الإطلاق، إذن يوم العطلة كان السببَ في أناقته الغريبة.

كان رأسي يدور بشدة حتى إنني لم أستطِعْ صياغةَ إجابة مترابطة. إلا أنه تعرَّف عليَّ ورأى أنني مريض.

سألني: «هل معك نظارتي؟»

أخرجتُها من جيب بنطالي وأعطيتُها له.

قال: «لقد أتيتَ من أجل معطفك وصدريتك، تعالَ إلى الداخل. يا إلهي يا رجل! يبدو أن ساقَيك متعبتان، حاول أن تتمالك نفسك حتى أُحضرَ لك مقعدًا.»

أدركتُ أني كنتُ أُعاني من إحدى نوبات الملاريا؛ فقد كانت الحمى تنتشر في عظامي، وأدَّت الليلةُ الرطبة التي قضيتُها في إظهار الأعراض، بينما أدَّت إصابةُ كتفي وآثارُ الأبخرة إلى تفاقم شعوري بالإعياء. ودون أن أدريَ، كان السيد تيرنبول يُساعدني في تغيير ملابسي، ويضعني في السرير في واحدة من الغرفتين المحاذيتين لجدران المطبخ.

كان عاملُ إصلاح الطريق العجوز هذا صديقًا صدوقًا بحقٍّ؛ فقد توفَّت زوجتُه منذ عدة سنوات، وكان يعيش وحيدًا منذ زواج ابنته.

طوال ما يقرب من عشرة أيام كان يُوليني الرعايةَ الطبية التي كنتُ أحتاجُها. كلُّ ما أردته ببساطة كان أن أُتْرَك وشأني بينما تأخذُ الحمى مجراها المعتاد، وحين عادت حرارةُ جسمي إلى طبيعتها وجدتُ أن هذه النوبة أدَّت إلى شفاء كتفي بشكل أو بآخر. إلا

أنها كانت نوبةً سيئة للغاية، وعلى الرغم من تمكُّني من النهوض من السرير في غضون خمسة أيام، فإنني استغرقتُ بعضَ الوقت حتى استطعتُ السيرَ على قدميَّ مرةً أخرى.

كان يخرجُ صباح كلِّ يوم، ويترك لي حليبًا يكفيني طوال اليوم، ويوصدُ الباب خلفه، ويعود في المساء ويجلس صامتًا في الزاوية بجوار المدفأة. لم يقترب أحدٌ من المكان، وحين بدأتْ حالتي تتحسن لم يُزعجْني مطلقًا بطرح أي أسئلة. أحضرَ لي عدة مرات صحيفة سكوتسمان مرَّ يومان على إصدارها، ولاحظتُ أن الانشغال بجريمة قتل بورتلاند بليس كان يبدو أنه قد تلاشى. لم يكن ثمة ذكرٌ للحادث، وكانت الأخبار في معظمها تدور حول شيء يُدعَى «الاجتماع العام» الذي، كما فهمتُ، كان نشاطًا كنسيًّا من نوعٍ ما.

في أحد الأيام أخرج حزامي من درج مغلق بإحكام، وقال: «يوجد قدرٌ هائل من الفضة فيه. يجدرُ بك أن تَعُدَّها لتتأكد أنها موجودة كلها.»

لم يحاول أبدًا معرفةَ اسمي. سألتُه عما إذا كان أحدٌ في المنطقة قد سأل عني بعد الوقت الذي أمضيتُه في إصلاح الطريق.

«أجل أتى رجلٌ في سيارة، وسألني عمن حلَّ محلي في ذاك اليوم، فأخبرتُه أنني أعتقد أنه سخيفٌ بسؤاله هذا. لكنه ظلَّ يلحُّ عليَّ، وحينها قلتُ له إنه ربما يقصد أخي الروحي من تل كليو الذي كان يُساعدني أحيانًا. كان شخصًا يبدو ويلزيًّا، ولم أستطِعْ فهمَ نصف ما يقوله بلغته الإنجليزية.»

كنتُ قد بدأتُ أشعر بالقلق في تلك الأيام الأخيرة، وقررتُ المغادرة حالما أشعر بأنني استعدتُ عافيتي. لم يحدث ذلك قبل يوم الثاني عشر من يونيو، ولحسن الحظِّ مرَّ بنا في هذا الصباح تاجرُ ماشية يأخذ بعضَ الماشية إلى بلدة موفات. كان رجلًا يُدعى هيسلوب، وكان صديقًا لتيرنبول، وقد أتى ليتناول الإفطار معنا وعرض أن يأخذني معه.

جعلتُ تيرنبول يقبل أن يأخذ خمسة جنيهات نظير إقامتي، وكم عانيتُ لأقنعَه بقبول هذا المال. لم أرَ في حياتي قط رجلًا حرًّا في تفكيره وتصرفه مثله. ازداد حدةً حين ضغطتُ عليه، واحمرَّ وجهُه خجلًا، وأخيرًا أخذ المال دون كلمة شكر واحدة. حين أخبرتُه كم أنا مَدينٌ له أصدر صوتًا أجشَّ وقال شيئًا من قبيل «ما جزاء الإحسان إلا الإحسان». قد يظنُّ المرءُ من طريقة وداعِنا أننا افترقنا ونحن نبغض بعضنا.

كان هيسلوب إنسانًا مرحًا، ظلَّ يتحدث طوال الطريق على الممر وفي وادي أنان المشمس. تحدثتُ عن أسواق جالواي وأسعار الخراف، واستقرَّ في ذهنه أني «راعي قطعان» من تلك الأنحاء وإن لم يكن يعرف تحديدًا من أين. فكما قلتُ أعطاني الوشاح

والقبعة التي أرتديها مظهرًا اسكتلنديًّا مسرحيًّا. إلا أن قيادة الماشية عملٌ بَطِيءٌ للغاية، واستغرقنا معظم اليوم في قطْع اثني عشر ميلًا فقط.

لو لم يكن القلقُ يختلج في صدري لكنتُ استمتعتُ كثيرًا بذلك الوقت؛ فقد كان الطقس صحوًا والسماء زرقاء، والمشهد يتغير باستمرار بين تلال بُنِّيَّة اللون ومروج خضراء شاسعة، وصوت طيور القبرة والكروان المستمر وخرير مياه المجاري المائية المنحدرة. إلا أن ذهني لم يكن حاضرًا للاستمتاع بالصيف، ولا للتركيز في حديث هيسلوب إلا قليلًا؛ إذ مع اقتراب يوم الخامس عشر المشئوم كنتُ مثقلًا بالصعوبات الهائلة لمهمتي.

تناولتُ بعض الطعام على العشاء في حانة متواضعة في موفات، وسرتُ نحو ميلين إلى تقاطع الطريق مع خط السكة الحديدية الرئيسي. لم يكن موعدُ القطار السريع الليلي المتجه جنوبًا سيحين إلا قرب منتصف الليل، وحتى أقضيَ هذا الوقت اتجهتُ صوبَ منحدر التلِّ وغططتُ في النوم؛ إذ كنتُ متعبًا من المشي. نمتُ لوقت طويل جدًّا، وتعيَّن عليَّ أن أركض إلى محطة القطار لألحق بالقطار قبل أن يغادر بدقيقتين. منحني الملمسُ الصلبُ لوسائد الدرجة الثالثة ورائحةُ التبغ الرديء الجودة شعورًا بسعادة بالغة. على أي حال، شعرتُ الآن بأني قد بدأتُ اتخاذ خطوات فعلية تجاه تنفيذ مهمتي.

نزلتُ من القطار في مدينة كرو في الساعات الأولى من الصباح، وكان عليَّ الانتظارُ حتى الساعة السادسة لأستقلَّ القطار المتجه إلى برمينجهام. في فترة بعد الظهيرة وصلتُ إلى مدينة ريدنج، وغيَّرتُ القطار وركبتُ قطارًا محليًّا كان يمرُّ عبر أعماق بركشاير. بعد قليل وصلتُ إلى أرضٍ بها مروج مائية كثيفة، وجداول بطيئة كثيرة البوص. في نحو الساعة الثامنة مساء، نزل في محطة أرتينسويل رجلٌ متعبٌ تظهر عليه علاماتُ السفر، خليطٌ بين عامل في مزرعة وطبيب بيطري، وكان هذا الرجل هو أنا، وكان مُلقًى على ذراعي وشاحٌ صوفيٌّ من مربعات بيضاء وسوداء (إذ لم أكنْ أجرؤ أن أرتديَه جنوب الحدود). كان الكثيرُ من الناس على رصيف المحطة، واعتقدتُ أنه من الأفضل لي الانتظارُ والسؤال عن الطريق حتى أتيقن من المكان.

كان الطريق يمتدُّ عبر غابة من أشجار الزان الضخمة ثم عبر وادٍ ضحل، ولاحت من فوق الأشجار البعيدة الخلفياتُ الخضراء للتلال. بعدما تركتُ اسكتلندا بدا الهواء ثقيلًا وراكدًا، ولكن كانت تفوح منه بالتأكيد رائحةٌ حلوة؛ إذ كانت شجيرات الليمون والكستناء والليلك قبابًا مزهرة. بعد قليل وصلتُ إلى جسر، أسفله مجرًى مائيٌّ صافٍ بطيء يتدفق بين مجموعات كبياض الثلج من نبات حوذان الماء. فوقه بقليل كانت توجد طاحونةٌ؛

وكان ضارب السوط يُحدِث صوتًا عذبًا يبعث على السرور في هذا الغسق المعبَّق بالروائح العطرة. بطريقةٍ ما أشعرني المكانُ بالهدوء وجعلني أشعر بالراحة. شعرتُ برغبة في الصفير وأنا أنظر إلى الأماكن العميقة الخضراء وكان اللحن الذي تبادر إلى شفتي هو لحن أغنية آني لوري.

ظهر صيادُ سمك من الضفة، وبينما كان يقتربُ مني بدأ هو الآخر في الصفير. كان اللحن يجعل مَن يسمعه يقلِّده؛ إذ حذا الرجلُ نفسَ حذوي. كان رجلًا ضخمًا يرتدي سروالًا خفيفًا قديمًا غير مهندم، وقبعة عريضة الحافة، وتتدلَّى من كتفه حقيبةٌ قماشية. أشار لي برأسه، وفكرتُ في أنني لم أرَ قط وجهًا أكثر فطنة وأهدأ طبعًا. أسند صنارتَه الرفيعة المصنوعة من خشب الخيزران، والتي كان يبلغ طولُها عشرَ أقدام، على الجسر ونظر معي نحو الماء.

قال بلطف: «إن الماء صافٍ، أليس كذلك؟ أنا أُفضِّل دومًا نهرَ كينر على نهر تيست. انظر إلى تلك السمكة الكبيرة، إنها تكاد تزن أربعةَ أرطال على الأقل. غير أن النشاط المسائي للأسماك قد انتهى ولا يمكنك أن تغريَها بالطُّعم.»

قلت: «لا يمكنني رؤيتُها.»

«انظر! هناك! على بُعد ياردة من أعواد البوص فوق سمكة أبي شوكة بالضبط.»

«لقد رأيتُها الآن، يكاد المرء يُقسِم بأنه حجرٌ أسود.»

قال: «أجل.» وصفَّر جزءًا آخر من «آني لوري».

قال، ملتفتًا نحوي وعيناه كانتا لا تزالان مثبتتَين على النهر: «اسمك تويسدون، أليس كذلك؟»

قلت: «لا، أعني أجل، أجل.» كنت قد نسيتُ كلَّ شيء يتعلق بأسمائي المستعارة.

قال معقبًا: «إن المتآمر الحكيم هو الذي يعرف اسمَه.» وابتسم ابتسامةً واسعة وهو ينظر إلى دجاجة ماء برزتْ من ظل الجسر.

اعتدلتُ في وقفتي ونظرتُ إليه، إلى الفك المربع المشقوق والجبهة العريضة المجعدة وطيات الخد الصلبة، وبدأت أفكر في أنني وجدتُ أخيرًا حليفًا جديرًا بأن يكون إلى جانبي. بدتْ عيناه الزرقاوان الغريبتان عميقتين للغاية.

عبس وجهَه فجأةً. وقال، رافعًا صوته: «أنا أرى هذا أمرًا مخزيًا. إنه لأمرٌ مخزٍ أن يتجرَّأ رجلٌ صحيحُ الجسد مثلك على التسول. يمكنك الحصولُ على وجبة من مطبخ منزلي، لكني لن أعطيَك مالًا.»

مرَّتْ أمامنا عربةٌ تجرُّها الكلاب، يقودها شابٌّ رفع سوطَه لتحية الصياد. حين اختفى عن الأنظار، أمسك الرجل بصنارته.

قال وهو يشير إلى بوابة بيضاء تبعد نحو مائة ياردة: «ذاك منزلي. انتظر خمس دقائق ثم لُفَّ وتعالَ إلى الباب الخلفي.» وبعد أن قال هذا انصرف وتركني.

فعلتُ كما طُلِب مني. وجدتُ كوخًا جميلًا به حديقة أمامية تمتدُّ حتى المجرى المائي، وغابة رائعة من نباتات الرباطية الدرهمية الأزهار والليلك تُحيط بالممر. كان الباب الخلفي مفتوحًا وفي انتظاري كبيرُ خدم مهيب الطلعة.

قال لي: «تفضَّل من هنا يا سيدي.» وأرشدني على طول ممرٍّ وإلى أعلى سُلَّم خلفي إلى غرفة نوم جميلة تطلُّ على النهر. وجدت في الغرفة لباسًا كاملًا متروكًا من أجلي، بكافة الملحقات؛ بِذْلة بُنِّيَّة من قماش صوفي ناعم، وقمصان وياقات، وأربطة عنق، وأدوات حلاقة، وفرشاة شعر، وحتى زوج حذاء من الجلد اللامع. قال كبيرُ الخدم: «رأى السير والتر أن أغراض السيد ريجي ستُناسبكَ يا سيدي. إنه يحتفظ ببعض الملابس هنا؛ لأنه عادةً ما يأتي في عطلات نهاية الأسبوع. يوجد حمَّامٌ في الغرفة المجاورة، وقد أعددتُه للاستحمام. سيكون العشاء جاهزًا بعد نصف ساعة يا سيدي. ستسمع حينها صوتَ الجرس.»

خرج الخادم المهيب الطلعة، وجلستُ فاغرًا فمي على مقعدٍ وثيرٍ مغطًّى بقماش قطني منقوش. كان الأمر أشبهَ بمسرحية إيمائية صامتة، أن أخرج فجأةً من عالم التسول إلى هذا العالم المريح المرتب. كان من الواضح أن السير والتر يُؤمن ببراءتي، على الرغم من عدم قدرتي على تخمين السبب في ذلك. نظرتُ إلى نفسي في المِرآة ورأيتُ إنسانًا همجيًّا منهكًا داكنَ البشرة، بذقن أشعث لم يُحْلَق منذ أسبوعين، وفي عينَيه وأذنيه ترابٌ، لا يرتدي ياقةً وقميصه غير مهندم، عليه ملابس صوفية قديمة بشعة المظهر ويلبس حذاءً طويلَ الرقبة لم يُنظَّف منذ شهر تقريبًا. أديتُ دور المتشرد على أكمل وجه وكنتُ تاجرَ ماشية لا بأس به، وها أنا الآن أجد كبيرَ خدم أنيقًا يُرشدني إلى داخل محراب الراحة الفاخرة هذا. وأفضل ما في الأمر أنهم حتى لم يكونوا يعرفون اسمي.

قررتُ ألا أُربكَ عقلي، بل أن أتقبل العطايا التي قدَّمتها الآلهة لي. حلقتُ ذقني وأخذتُ حمامًا فاخرًا، وارتديتُ الملابس الرسمية والقميص الرائع النظيف، ولم يكن المقاس مختلفًا كثيرًا عن مقاسي. وحين انتهيتُ نظرتُ في المِرآة فوجدتُ رجلًا شابًّا لا بأس بمظهره.

كان السير والتر في انتظاري في غرفة طعام هادئة الإضاءة حيث وجدتُ طاولة مستديرة صغيرة مضاءة بشموع فضية. كان مظهرُه يشعُّ احترامًا وطمأنينة وأمنًا؛ فقد كان تجسيدًا للقانون والسلطة وجميع النُّظُم التي كانت تُدهشني وتُشعرني بأني شخص يتدخل فيما لا يعنيه. كان من المستبعد أنه كان يعلم حقيقة هويتي، وإلا ما كان سيعاملني هكذا. أما أنا فلم يكن يمكنني ببساطة تقبُّل حسن ضيافته على أساس ادعاءات كاذبة.

قلت له: «أنا ممتنٌّ لك أكثر مما يسعني التعبير، لكن لزامًا عليَّ أن أوضح الأمور. أنا رجل بريء، لكني مطلوبٌ من الشرطة. لا بد لي من أن أخبرَك بهذا، ولن أتفاجأَ إن طردتني بعدها.»

ابتسم وقال: «لا بأس، لا تجعل ذلك يُفسد عليك شهيتَك. يمكننا التحدثُ في هذه الأمور بعد تناول العشاء.» لم أتناولْ وجبةً قط أفضل مذاقًا من هذه؛ إذ إنني لم أكن قد تناولتُ أيَّ شيء طوال اليوم عدا الشطائر التي حصلتُ عليها من محطة القطار. أحسن السير والتر ضيافتي؛ إذ شربنا شَمْبانيَا جيدةً وبعد ذلك نبيذًا معززًا حلو المذاق من نوع غير شائع. كاد جلوسي في هذا المكان أن يُفقدني عقلي؛ إذ كان يقوم على خدمتي خادم وكبير خدم أنيق، وأتذكر أنني عشتُ الأسابيع الثلاثة الماضية مثل الخارجين عن القانون، مُطارَد من جميع الناس. أخبرتُ السير والتر عن أسماك النمر في نهر زمبيزي التي تقضم إصبعك إذا واتتها الفرصة، وتحدَّثنا عن رياضة الصيد في جميع بقاع العالم؛ إذ كان محبًّا للصيد بعض الشيء في أيامه الخوالي.

ذهبنا إلى غرفة مكتبه لتناول القهوة، وكانت غرفةً مبهجة عامرة بالكتب والجوائز ويسودها شعورٌ بعدم الترتيب والراحة. قررتُ أني إن تخلصتُ يومًا من هذه المهمة التي أضطلعُ بها وحصلت على منزل خاص بي، فسأصنع فيه غرفة تُشبه هذه الغرفة تمامًا. وبعد أن رُفِعَت فناجين القهوة وأشعلنا السيجار، رفع مضيفي ساقَيه الطويلتين فوق مسند كرسيه وطلب مني أن أبدأ في سرْد قصتي.

قال لي: «لقد اتبعتُ تعليمات هاري، وما أغراني به لفعل هذا كان قوله إنك ستُخبرني بشيء يوقظ حواسي. كلِّي آذانٌ مصغية يا سيد هاناي.»

لاحظتُ بإجفالة أنه دعاني باسمي الحقيقي.

بدأتُ من بداية الأحداث تمامًا. أخبرتُه عن شعوري بالملل في لندن، وعن الليلة التي عدتُ فيها إلى المنزل لأجد سكادر يتحدث إليَّ أمام باب شقتي. حكيتُ له كلَّ ما أخبرني به سكادر عن كارولايدس ومؤتمر وزارة الخارجية، فجعله ذلك يضغط على شفتَيه ويبتسم.

ثم أوصلني الحديثُ إلى جريمة القتل، فعادت الجديةُ تكسو وجهَه مرةً أخرى. سمع مني كلَّ ما حدث مع بائع الحليب والوقت الذي قضيتُه في جالواي، وفكي لشيفرة مفكرة سكادر وأنا في النُّزل.

سألني بحدَّة: «أهي معك هنا؟» وتنفَّس الصعداء حين أخرجتُ المفكرة الصغيرة من جيبي.

لم أخبرْه بشيء عن محتويات المفكرة. ثم وصفتُ له لقائي بالسير هاري، والخُطب التي ألقيناها في قاعة الاجتماعات. حين سمع ذلك، ضحك ضحكًا صاخبًا.

«لقد تحدث هاري بهُراء فارغ، أليس كذلك؟ أنا متأكد من هذا. إنه أكثرُ الناس طيبة على الإطلاق، لكن عمَّه الأحمق ملأ عقلَه بأفكار خيالية. تابِع يا سيد هاناي.»

استمتعَ كثيرًا بحديثي عن اليوم الذي قضيتُه كعامل إصلاح للطريق، وجعلني أصفُ له الرجلين اللذَين كانَا يركبان السيارة وصفًا دقيقًا، وبدا أنه يبحث عنهما في ذاكرته. ابتهج مرةً أخرى حين سمع بما أصاب ذلك المغفل جوبلي.

لكنه عاد إلى جديته مرةً أخرى وهو يسمع قصةَ الرجل العجوز في المنزل المطلِّ على الأرض السَّبَخة. ومرةً أخرى كان عليَّ أن أُطلعَه على أوصافه بالتفصيل.

«عديم المشاعر وأصلع الرأس، ويُحرِّك عينيه مثل طائر ... يبدو كطير بريٍّ مشئوم! وأنت فجرتَ صومعتَه، بعدما أنقذك من قبضة الشرطة. يا له من تصرف جريء!» بعد قليل وصلتُ إلى نهاية رحلاتي. نهض من مكانه ببطء، ونظر نحوي وهو واقف فوق سجادة المدفأة.

قال: «يمكنُك إبعادُ التفكير في الشرطة عن ذهنك؛ فأنت في مأمن من الوقوع في قبضة القانون.»

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! هل قبضوا على القاتل؟»

«كلَّا، لكنهم منذ أسبوعين أسقطوا اسمَك من قائمة المشتبه بهم.»

سألتُه في ذهول: «لماذا؟»

«السببُ الأساسي أنني تلقيتُ خطابًا من سكادر؛ فقد كنتُ على معرفة بالرجل، فقد أدَّى عدة أعمال من أجلي. لقد كان يجتمع فيه الجنون والعبقرية، لكنه كان يتصف إجمالًا بالنزاهة. كانت المشكلةُ الوحيدة بشأنه هي ميلَه إلى العمل بمفرده. وذلك جعله عديمَ النفع في أي عمل مخابراتي مع الأسف؛ فقد كانت لديه مواهبُ استثنائية. في رأيي أنه كان أشجعَ إنسان في العالم؛ إذ كان يرتجف من الخوف طوال الوقت، ومع ذلك لم يمنعْه أيُّ شيء من مواصلة ما يقوم به. وصلني خطابٌ منه في الحادي والثلاثين من مايو.»

«لكنه لقيَ حتفه قبل أسبوع من هذا التاريخ.»

«لقد كتب الخطابَ وأرسله في يوم الثالث والعشرين. من الواضح أنه لم يكن يتوقع موتَه المفاجئ. عادةً ما كانت خطاباتُه تصلني بعد أسبوع من إرسالها؛ إذ كانت تُرسَل تحت ستار من السرية إلى إسبانيا ومنها إلى نيوكاسل. لقد كان مهووسًا، كما تعلم، بإخفاء آثاره.»

تمتمتُ قائلًا: «ماذا قال فيه؟»

«لا شيءَ، مجرد أنه كان في خطر، لكنه وجد ملاذًا آمنًا مع صديق جيد، وأنه سيتواصل معي قبل الخامس عشر من يونيو. لم يعطني أيَّ عنوان، لكنه قال إنه يعيش بالقرب من بورتلاند بليس. أعتقد أن هدفه كان تبرئةَ ساحتك إن حدث أيُّ شيء. حين وصلني الخطابُ ذهبتُ إلى سكوتلاند يارد، واستعرضنا تفاصيل التحقيق، واستنتجنا أنك كنتَ أنت ذلك الصديق. تحرَّينا عنك يا سيد هاناي، ووجدنا أنك إنسانٌ محترم. اعتقدتُ أنني كنتُ أعرف أن الدوافع وراء اختفائك، لم تكن فقط الشرطة، وإنما أيضًا الأيدي الأخرى، وحين وردني خطابُ هاري المكتوب بخط رديء خمنتُ باقي الأمر. كنتُ أنتظرُ حضورك في أي وقت الأسبوع الماضي.» يمكنكم تصورُ مقدار العبء الذي أزاحه هذا الكلام عن كاهلي. شعرتُ بأني إنسانٌ حرٌّ مجددًا؛ إذ أصبحتُ الآن في مواجهة أعداء بلدي فقط، وليس قانون بلدي.

قال السير والتر: «والآن دعنا نُلقي نظرة على المفكرة.»

استغرقنا ساعةً تقريبًا في قراءتها، وشرحتُ له الشيفرة، وقد استوعبها بسرعة كبيرة. صحَّح قراءتي لها في عدة نقاط، لكني كنتُ محقًّا بشأن الموجود فيها بوجه عام. اكتسى وجهُه بجدية بالغة قبل أن ينتهيَ من مطالعته للمفكرة، وجلس صامتًا لفترة.

قال أخيرًا: «أنا لا أدري ماذا نستنتجُ منها. إنه محقٌّ بشأن أمر واحد وهو ما سيحدث بعد غد. كيف، بحق الشيطان، كُشِف هذا الأمر؟ ذلك أمر بغيض في حدِّ ذاته. لكن كل هذا الكلام حول الحرب، وجماعة بلاك ستون يبدو عند قراءته كرواية ميلودرامية عنيفة. لو كان لديَّ المزيدُ من الثقة في كلام سكادر لكنتُ اقتنعتُ بالأمر. مشكلته كانت خيالَه المفرط؛ فقد كان يتمتع بحسٍّ فنيٍّ، وأراد لقصته أن تكون أفضلَ مما أراد الرب لها أن تكون. كذلك كان لديه الكثيرُ من التحيزات الغريبة. على سبيل المثال، كان اليهود يُصيبونه بالغضب؛ اليهود والأوساط المالية العليا.»

كرَّر قائلًا: «بلاك ستون.» ثم قال: «الصخرة السوداء (قالها بالألمانية)، إنها تُشبه أقصوصة رخيصة الثمن. ثم كل هذا الكلام بشأن كارواليدس. إنه أضعف جزء في القصة؛

فأنا على يقين من أن كارولِيدس الفاضل هذا سيعيش على الأرجح أكثر مني ومنك. فلا توجد دولةٌ في أوروبا تريد التخلصَ منه. بالإضافة إلى أنه كان يحاول لتوِّه كسبَ وُدِّ برلين وفيينا ويُزعج رئيس وزرائنا. كلَّا! لقد حاد سكادر عن الصواب في هذا الأمر. بصراحة، يا هاناي، أنا لا أصدق ذلك الجزء من قصته. ثمة عملٌ ما سيئ يجري، وهو اكتشف أكثرَ مما ينبغي وفقد حياتَه بسبب هذا. لكني على استعداد لأن أُقسم أنه عمل تجسسيٌّ عادي؛ فثمة قوةٌ عظمى أوروبية معينة لعبتُها المفضلة هي شبكة التجسس التابعة لها، وأساليبها ليست محددةً جدًّا. وبما أنها تُعطي الأجرَ لقاء العمل بالقطعة، فمن غير المرجح أن يقف عملاؤها الأوغاد عند ارتكاب جريمة قتل أو اثنتين. إنهم يريدون معرفةَ أماكن تمركز قواتنا البحرية ليضمُّوها إلى ما لديهم من معلومات في مكتب القيادة العليا للبحرية الألمانية، إلا أن مساعيهم هذه ستذهب أدراجَ الرياح.» دخل كبيرُ الخدم في هذه اللحظة إلى الغرفة.

«يوجد اتصالٌ هاتفي خارجي من لندن يا سير والتر. إنه السيد إيث، ويريد التحدث إليك شخصيًّا.»

ذهب مضيفي للإجابة على الهاتف.

عاد بعد خمس دقائق بوجه شاحب. قال: «إنني مَدينٌ بالاعتذار إلى روح سكادر. لقد لقيَ كارولِيدس حتفَه بطلق ناري هذا المساء بعد السابعة ببضع دقائق.»

الفصل الثامن

# ظهور جماعة بلاك ستون

نزلتُ لتناول الإفطار في صباح اليوم التالي، بعد ثماني ساعات من نوم هانئ دون أي أحلام، لأجد السير والتر يفكُّ شيفرة برقية وسط الكعك المحلى والمربى. بدا أن نضارة وجهه، التي كنتُ قد رأيتُها يوم أمس، قد تعكَّرت بفعل التفكير.

قال: «لقد انشغلتُ ساعة في مكالمة هاتفية بعدما خلدتَ أنت للنوم؛ فقد جعلتُ رئيسي يتحدث إلى لورد الأميرالية الأول ووزير الحربية، وقرروا جميعًا إحضار روييه قبل يوم من موعده، وهذه البرقية تؤكد هذا. سيحضر إلى لندن في تمام الخامسة، ومن الغريب أن تكون الكلمة المفتاحية لشيفرة «نائب رئيس هيئة الأركان العامة» هي «بوركر».»

أشار عليَّ بتناول الأطباق الساخنة وتابع حديثه.

«لا أعتقدُ أن هذا سيُجدي نفعًا؛ فإذا كان لدى أصدقائك من الذكاء ما يمكنهم من معرفة الترتيب الأول، فإن ذكاءهم هذا سيجعلهم يكتشفون ما حدث من تغيير. سأضحِّي بأيِّ شيء لأعرف مصدر التسريب. لقد اعتقدنا أن خمسةَ رجال فقط في إنجلترا كانوا على علم بزيارة روييه، وكنَّا على يقين من أن عددًا أقل كان على علم بها في فرنسا؛ وهذا لأنهم أفضل منَّا في التعامل مع هذه الأمور.»

واصل حديثَه بينما كنتُ أنا أتناول الطعام، ولدهشتي جعلني موضعَ ثقته الكاملة.

سألتُه: «ألا يمكن تغييرُ مواضع تمركز القوات؟»

قال: «من الممكن، لكننا نريد تجنب ذلك إن أمكن؛ فهذه المواضع نتاجُ تفكير عميق، ولا يمكن لأي تعديل أن يكون على القدر نفسه من الجودة، بالإضافة إلى أن التغيير مستحيلٌ ببساطة في نقطة أو نقطتين. ومع ذلك فثمة ما يمكن عملُه، بحسب ظني، إذا ما اقتضت الحاجةُ هذا. إلا أن الصعوبة تكمن، كما ترى يا هاناي، في أن أعداءنا لن يُقدِموا على فعل أحمق؛ كأن يسرقوا المعلومات من روييه أو يقوموا بأي حيلة طفولية

من هذا القبيل؛ فهم يعرفون أن ذلك مؤداه حدوث ضجة وسيضعنا على أهبة الاستعداد. إن هدفهم هو الحصول على التفاصيل دون معرفة أيِّ أحدٍ منَّا، بحيث يعود روييه إلى باريس معتقدًا أن الأمر برُمَّته ما زال في طيِّ الكتمان. وإن لم يستطيعوا فعل هذا فقد فشلوا؛ هذا لأنهم يعلمون أنه لا بد من تغيير كلِّ شيء بمجرد أن يساورنا أيُّ شك.»

قلت له: «إذن علينا أن نلزم جانب هذا الفرنسي حتى عودته إلى وطنه. فلو كانوا يعتقدون أن بإمكانهم الحصولَ على هذه المعلومات في باريس لكانوا حاولوا هناك. هذا يعني أنهم يُدبِّرون مخططًا محكمًا في لندن، ويعتقدون في نجاحه.»

«سيتناول روييه العشاءَ مع رئيس وزرائنا، ثم سيأتي إلى منزلي حيث سيلتقي به أربعةُ رجال: ويتاكر من الأميرالية، وأنا، والسير آرثر درو، والجنرال وينستانلي. إن رئيس الأركان البحرية مريض، وذهب إلى شيرنجهام. وفي منزلي وثيقة معينة من ويتاكر، وبعدها سيذهب بسيارة إلى مدينة بورتسموث، حيث ستأخذه مدمرةٌ بحرية إلى ميناء هافر. إن رحلته في غاية الأهمية فلا يمكن أن يستقلَّ قطار الركاب العادي. لن يُترك دون مرافق للحظة واحدة حتى يعودَ بأمان إلى الأراضي الفرنسية. وسيحدث الأمر نفسه مع وايتاكر حتى يلتقيَ برورييه. هذا أفضل ما يمكننا فعله، ومن الصعب رؤية كيف يمكن أن يحدث أيُّ خطأ. إلا أنه لا يمكنني إنكارُ شعوري بتوتر شديد؛ فمقتل كارولیدس سيُحدث ذعرًا هائلًا لدى مستشاري أوروبا.»

بعدما تناولنا طعام الإفطار سألني عما إذا كنتُ أعرف قيادة السيارات. قال لي: «حسنًا، فلتكن أنت سائقي اليوم وارتدِ ملابس هدسون؛ فأنت في نفس قياسه تقريبًا. أنت ضالع في هذا الأمر، ولا نريد أيَّ مخاطرة. أعداؤنا على استعداد لفعل أيِّ شيء، ولن يصونوا حرمة مسئول لجأ إلى منتجعه الريفيِّ بعدما أعياه فرطُ العمل.»

حين وصلتُ إلى لندن لأول مرة كنتُ قد اشتريتُ سيارة واستمتعتُ بقيادتها في أنحاء جنوب إنجلترا؛ لذا كنتُ أعلمُ جغرافيا المكان بعضَ الشيء. أخذتُ السير والتر إلى بلدة تقع على طريق باث وأحسنتُ قيادة السيارة. كان صباح هذا اليوم من شهر يونيو صافيًا وبلا نسيم، ويُبشِّر بارتفاع الحرارة في وقت لاحق من النهار، لكنه كان من اللطيف أن نتحركَ بالسيارة بين القرى الصغيرة ذات الشوارع المرشوشة بالماء حديثًا، ونمرَّ على الحدائق الصيفية في وادي نهر التيمز. أوصلتُ السير والتر إلى منزله في منطقة بوابة الملكة آن في تمام الحادية عشرة والنصف. أما كبيرُ الخدم فكان سيأتي بالقطار ومعه الأمتعة.

كان أول شيء فعله هو أن أخذني إلى سكوتلاند يارد. وهناك التقينَا بسيد أنيق المظهر، حليق الوجه، يُشبه المحامين.

قدَّمني له السير والتر قائلًا: «لقد أحضرتُ إليك قاتلَ بورتلاند بليس.»

كان ردُّه عبارة عن ابتسامة ساخرة، وقال: «كان من المفترض بها أن تكون هديةَ ترحيب يا بوليفانت. أفترضُ، إذن، أن هذا هو السيد ريتشارد هاناي، الذي أثار اهتمام قسمي كثيرًا لعدة أيام.»

«سيُثير السيد هاناي اهتمامَ القسم مجددًا؛ فلديه الكثيرُ ليُخبرك به، ولكن ليس اليوم. فلأسباب خطيرة معينة لا بد له من الاحتفاظ بقصته لأربع ساعات أخرى. بعد ذلك يمكنني أن أعدك أنك ستستمتع كثيرًا وعلى الأرجح سيتضح لك الكثيرُ من الأمور. أريد منك أن تؤكد للسيد هاناي أنه لن يعانيَ المزيد من الإزعاج.»

أعطاني تأكيدًا بهذا على الفور، وقال لي: «يمكنك مواصلةُ حياتك تمامًا حيث تركتَها؛ فشقتك، التي على الأرجح لن ترغبَ في العيش فيها بعد الآن، في انتظارك، ولا يزال خادمُك موجودًا فيها. وبما أنه لم تُوجَّه إليك أي تهمة علنية قط، رأينا أنه لا حاجة إلى إصدار تبرئة علنية. لكن بالطبع، وفقًا لهذا، يمكنك التصرفُ كما يحلو لك.»

قال السير والتر ونحن في طريقنا للمغادرة: «ربما نحتاج إلى مساعدتك في وقت لاحق يا ماكجيليفراي.»

بعد ذلك تركني أذهب.

قال لي: «تعالَ لزيارتي غدًا يا هاناي. ولستُ بحاجة إلى إخبارك أن تلتزمَ الصمت تمامًا. لو كنتُ مكانك لذهبتُ إلى النوم، فلا بد من أنك بحاجة إلى تعويض الأيام التي لم تحصل فيها على نوم هانئ. من الأفضل لك أن تختفيَ عن الأنظار لبعض الوقت؛ لأنه إن رآك أحدُ أصدقائك من جماعة بلاك ستون فربما تحدث مشكلة.»

من الغريب أني شعرتُ بالملل لعدم وجود شيء لأفعله. في البداية كان من الرائع أن أُصبح إنسانًا حرًّا، أستطيع الذهاب إلى المكان الذي أريده دون أن أخشى شيئًا؛ فقد ظللتُ شهرًا هاربًا من القانون، وقد اكتفيتُ من هذا. ذهبتُ إلى فندق «سافوي» وطلبتُ وجبة غداء اخترتُ مكوناتِها بعناية، ثم دخنتُ أفضل نوع سيجار عندهم. لكني كنتُ لا أزال أشعر بالتوتر؛ فحين كنتُ أرى أيَّ شخص ينظر إليَّ في ردهة الفندق، كنتُ أشعر بالخجل، وأتساءل إذا ما كان يفكر في جريمة القتل.

بعد ذلك استقللتُ سيارة أجرة وابتعدتُ بها بضعة أميال في منطقة شمال لندن. عدتُ سيرًا على الأقدام بين الحقول وصفوف الفيلات والشرفات، ثم عبر الأحياء الفقيرة والشوارع غير الممهدة، واستغرقتُ في هذا نحو ساعتين. طوال هذا الوقت ازداد شعوري

بالضجر سوءًا. شعرتُ بأن ثمة أحداثًا عظيمة وهائلة تحدث أو على وشك الحدوث، وأنا، الذي كنتُ العجلةَ المحركة للأمر بأكمله، أصبحتُ خارجَ الأحداث؛ فروييه سيرسو في دوفر، والسير والتر سيضع خُططًا مع قلة قليلة في إنجلترا كانت على علم بهذا السرِّ، وفي مكانٍ ما في الخفاء تعمل جماعةُ بلاك ستون. شعرتُ بالخطر وبوقوع كارثة وشيكة، وراودني أيضًا شعورٌ غريب بأنني أنا الوحيد الذي بوسعه أن يدرأها ويتعامل معها. إلا أنني أصبحتُ خارج اللعبة الآن. وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ فقد كان من المستبعد أن يسمح لي وزراء الحكومة أو لوردات الأميرالية أو الجنرالات بالانضمام إلى مجالسهم.

في الواقع بدأتُ أتمنى لو أنني قابلتُ أحدًا من أعدائي الثلاثة، فمن الممكن لهذا أن يؤديَ إلى تطورات. شعرتُ برغبة هائلة في خوض عراك شديد مع تلك الجماعة، حيث يمكنني لكمُهم بشدة وتسويتهم بالأرض. كان شعوري بالحنق الشديد يزداد بسرعة كبيرة.

لم أشعر برغبة في العودة إلى شقتي. كنتُ أعلم أنه لا بد لي من أن أفعل ذلك عاجلًا أو آجلًا، لكن إذ كان لا يزال لديَّ مبلغٌ كافٍ من المال، فكرتُ في تأجيل هذا الأمر لصباح اليوم التالي، والذهاب إلى فندق لقضاء تلك الليلة.

دام شعوري بالحنق طوال تناولي لوجبة العشاء، التي تناولتُها في أحد المطاعم في شارع جيرمين. لم أعُد أشعر بالجوع، وتركتُ عدة أطباق دون تذوقها. شربتُ معظم زجاجة بورجندي، لكن هذا لم يُبهجْني؛ فقد سيطر عليَّ شعورٌ بغيض بالضجر؛ فها أنا ذا، شخص عادي للغاية، لا يملك ذكاءً خاصًّا، ومع ذلك كنتُ مقتنعًا بوجود حاجة إليَّ للمساعدة بشكلٍ ما في هذه القضية وأنه دون وجودي ستصير الأمور كارثية. أقنعتُ نفسي أن هذا مجردُ غرور سخيف، وأن أربعة أو خمسة من أذكى الرجال على وجه الأرض، مدعومين بكامل قوة الإمبراطورية البريطانية، يسيطرون على الأمر. ومع ذلك لم أقتنع بهذا؛ فقد بدا وكأن صوتًا ظلَّ يُحدِّثني في أذني، ويُخبرني بأن أهبَّ لفعل شيء، وإلا لن أنعم بالنوم بعد الآن.

كانت المحصلة أنه، في نحو التاسعة والنصف، عقدتُ العزم على الذهاب إلى شارع بوابة الملكة آن. على الأرجح لن يُسمَح لي بالدخول، ولكن محاولتي هذه كانت ستُريح ضميري.

سرتُ في شارع جيرمين، وعند زاوية شارع ديوك مررتُ بمجموعة من الشباب، كانوا يرتدون ملابسَ مسائية؛ فقد كانوا يتناولون طعام العشاء في مكان ما، وكانوا متوجهين إلى أحد المسارح الموسيقية. كان أحدهم السيد مرمادوك جوبلي.

رآني فتوقف فجأة.

صاح قائلًا: «يا إلهي، القاتل! هيا يا رفاق أمسكوا به! هذا هو هاناي، الرجل الذي ارتكب جريمة قتل بورتلاند بليس!» أمسك بذراعي وتجمَّع الآخرون حولي. لم أكن أسعى لافتعال أي مشكلات، لكن مزاجي العكر جعلني أتصرفُ بحماقة. أقبل علينا رجلُ شرطة، وكان يُفترض بي أن أخبرَه بالحقيقة، وإن لم يصدقْني؛ أن أطلب منه أن يأخذني إلى اسكتلاند يارد، أو في الواقع إلى أقرب مخفر شرطة. إلا أنَّ أيَّ تأخُّر في تلك اللحظة بدا غيرَ محمود العواقب، كما كانت رؤيةُ وجه مارمي الأحمق أكثرَ من قدرتي على الاحتمال. عاجلتُه بيسراي، وشعرتُ بالارتياح عند رؤيته مستلقيًا على الأرض في الشارع.

بعد هذا بدأ شجارٌ عنيف. هجموا عليَّ جميعًا في وقت واحد، وهجم الشرطي عليَّ من الخلف. تلقيتُ لكمة أو لكمتين قويتين، وأظن أنه لو كانت المواجهة متكافئة لكنت تغلبتُ على كثير منهم، لكن الشرطي ثبَّتني من الخلف، وأمسكني أحدُهم من رقبتي.

في وسط سحابة سوداء من الغضب سمعتُ الشرطي يسأل عن الخطْب، وأخبره مارمي من بين أسنانه المكسورة أني هاناي القاتل.

صحتُ قائلًا: «اللعنة على كل هذا، اجعل هذا الرجل يُطبق فمه. أنصحك بأن تتركني أذهب أيها الشرطي؛ فسكوتلاند يارد تعلم كل شيء بشأني، وستتعرض لتأنيب شديد إن تدخلت في أمري.»

قال الشرطي: «لا بد أن تأتي معي أيها الشاب؛ فقد رأيتك وأنت تضرب ذلك السيد بشدة. وأنت أيضًا مَن بدأ الشجار، فهو لم يكن يفعل شيئًا. لقد رأيتك، ومن الأفضل لك أن تأتي معي في هدوء وإلا قيدتك بالأصفاد.»

أمدني ما اعتراني من غضب، وشعوري بأنه لا بد لي من ألا أتأخر بأي ثمن، بقوة هائلة كقوة ذكر فيل بالغ. كدتُ أنتزع الشرطي من فوق سطح الأرض، وطرحت الرجل الذي كان ممسكًا برقبتي أرضًا، وانطلقت أعدو بأقصى سرعة ممكنة في شارع ديوك. سمعتُ صوت انطلاق صافرة وتدافع رجال من خلفي.

لديَّ مقدرة على الركض بسرعة كبيرة، وفي تلك الليلة انطلقت كالريح. وبعد قليل كنت قد وصلتُ إلى شارع بول مول، وانعطفتُ نحو حديقة سان جيمس. راوغت الشرطة عند بوابات القصر، واندفعتُ بين حشد من عربات الخيول الموجودة عند مدخل شارع بول مول، ووصلت إلى الجسر قبل أن يستطيع مطارديَّ عبور الطريق. وفي طرق الحديقة المفتوحة ركضتُ بأقصى سرعة. من حسن الحظ لم يكن ثمة كثيرٌ من الناس في الطرقات

ولم يحاول أحد إيقافي. لقد كنتُ أخاطر بكل شيء من أجل الوصول إلى شارع بوابة الملكة آن.

حين دخلتُ هذا الشارع الرئيسي الهادئ كان يبدو مهجورًا. كان منزل السير والتر يقع في الجزء الضيق من الشارع وأمامه وقفتْ ثلاث أو أربع سيارات. خففتُ من سرعتي قبل بضع ياردات منه ومشيتُ بسرعة نحو الباب. إذا رفض كبيرُ الخدم السماحَ لي بالدخول، أو حتى إذا تأخَّر في فتح الباب لي، فسينتهي أمري.

لم يتأخر في فتح الباب، فما كدتُ أن أضغط على جرس الباب حتى فُتح لي.

قلتُ له وأنا ألهث: «لا بد لي من مقابلة السير والتر. أريده في أمر غاية في الأهمية.»

كان كبيرُ الخدم ذاك رجلًا رائعًا. دون أن يحرِّك ساكنًا فتح الباب لي، ثم أغلقه بعدما دخلتُ. قال: «السير والتر مشغول يا سيدي، وعندي أوامر بألا أسمح لأحد بالدخول عليه. ربما عليك الانتظار.»

كان المنزل عتيقَ الطراز، به ردهة واسعة وعلى جانبَيها عددٌ من الغرف. وفي الطرف البعيد من الردهة كان ثمة فجوةٌ في الجدار بها هاتف وزوج من المقاعد، وهناك دعاني كبيرُ الخدم للجلوس.

همستُ قائلًا: «انظر، ثمة مشكلة تحدث وأنا طرفٌ فيها. إلا أن السير والتر يعلم بذلك وأنا أعمل لحسابه. إذا أتى أحدٌ للسؤال عني فاكذب عليه.»

أومأ برأسه، وبعد قليل سمعتُ أصواتَ ضوضاء في الشارع، ودُقَّ جرس الباب بعنف. لم أُعجَب قط بإنسان في حياتي مثلما أُعجبتُ بكبير الخدم ذاك؛ فقد فتح الباب، بوجه يخلو من التعبيرات، كأنه تمثال، وانتظر توجيهَ سؤال إليه. بعدها ردَّ عليهم، فأخبرهم منزلَ مَن هذا، وما تعليماته، وجعلهم ببساطة يتجمدون عند عتبة الباب. كنتُ أستطيع رؤية كلِّ ما يحدث من مكاني في فجوة الجدار، وكان الأمر أفضل من مشاهدة أي مسرحية.

لم يَطُل انتظاري حتى رنَّ الجرس مرةً أخرى. لم يتردد كبيرُ الخدم في إدخال هذا الزائر الجديد.

بينما كان هذا الزائر يخلع معطفَه رأيتُ مَن يكون. لم يكن من الممكن أن تفتحَ صحيفة ولا مجلة دون أن ترى هذا الوجه ذا اللحية الرمادية اللون التي تُشبه شكل البستوني في ورق اللعب، وهذا الفم الصارم القتالي، والأنف المربع غير الحاد، وهاتين العينين الزرقاوين الحادَّتي الذكاء. أدركتُ على الفور أنه رئيس أركان البحرية، وهو الرجل، كما يقولون، الذي أسَّس البحرية البريطانية الحديثة.

مر على مكاني في فجوة الجدار ودخل إلى إحدى الغرف في نهاية الردهة. وحين فُتح باب الغرفة استطعتُ سماع أصوات خفيضة، ثم أُغلق الباب، وبقيتُ وحدي مرةً أخرى.

جلستُ في هذا المكان لعشرين دقيقة أتساءل عما عليَّ فعله بعد هذا. كنت ما زلت مقتنعًا بشدة بأن ثمة حاجة إلى وجودي، لكن لم يكن عندي فكرة متى وكيف. ظللتُ أنظر إلى ساعتي، ومع وصول الوقت إلى الساعة العاشرة والنصف بدأتُ أفكر في أنه لا بد وأن هذا الاجتماع قد شارف على الانتهاء؛ فبعد ربع ساعة لا بد أن روييه سوف يقطع الطريق مسرعًا إلى بورتسموث …

بعد ذلك سمعتُ جرسًا يرنُّ، وظهر كبير الخدم. فُتح باب الغرفة في نهاية الردهة، وخرج منها رئيس أركان البحرية. مر على مكان جلوسي مرةً أخرى، ونظر نحوي في أثناء مروره، وتبادلنا النظراتِ للحظة.

لم يدُمْ هذا إلا لحظة واحدة، لكنها كانت كافيةً لجعل قلبي يخفق بشدة. لم أكن قد رأيتُ في حياتي هذا الرجل المهيب من قبل، وهو لم يكن قد رآني قط أيضًا. إلا أنه في هذا الجزء من الثانية، شيءٌ ما ظهر في عينيه، وذلك الشيء كان تعرُّفَه عليَّ. لا يمكن للمرء أن يُخطئَ في تمييز هذا. إنها ومضة، شرارة من الضوء، لمحة من اختلاف طفيف تظهر للحظة ولا تعني إلا شيئًا واحدًا فقط. لقد حدثتْ لا إراديًّا؛ إذ ظهرت للحظة ثم خَبَتْ، وواصل هو السيرَ في طريقه. ووسط متاهة من تخيلات جامحة سمعتُ صوتَ باب البيت المطل على الشارع يُغلَق خلفه.

التقطتُ دليلَ الهاتف وبحثتُ عن رقم منزله. استطعتُ الاتصال به على الفور وسمعتُ صوتَ خادمه.

سألتُه: «أهذا بيت رئيس الأركان؟»

قال الصوت: «لقد عاد سعادة رئيس الأركان منذ نصف ساعة وخلد مباشرةً للنوم. إنه ليس على ما يُرام الليلة. هلا تركتَ له رسالة يا سيدي؟»

أغلقتُ الهاتف على الفور وكدتُ أقعُ من فوق مقعدي. إن دوري في هذه القضية لم ينتهِ بعدُ. لقد كادت الكارثةُ أن تقع، لكني وصلتُ في الوقت المناسب.

لم يكن من الممكن إضاعةُ لحظة واحدة؛ لهذا سرتُ بجسارة نحو باب هذه الغرفة في نهاية الردهة ودخلتُ دون الطرق عليه.

ارتفعتْ خمسةُ وجوه مذهولة ناظرةً إليَّ من حول طاولة مستديرة. كان هؤلاء هم السير والتر، ووزير الحربية درو الذي عرفتُه من صوره، وكان معهم رجلٌ مسن نحيل

هو على الأرجح ويتاكر مسئول الأميرالية، وكذلك رأيتُ الجنرال وينستانلي المعروف بندبته الطويلة على جبهته. أخيرًا كان معهم رجلٌ، قصير بدين الجسم له شارب رمادي لامع وحاجبان أشعثان، توقف عن الكلام في منتصف الجملة التي كان يقولها.

ظهرت أماراتُ الدهشة والانزعاج على وجه السير والتر.

وقال معتذرًا إلى مجموعته: «هذا هو السيد هاناي، الذي حدثتكم عنه. أخشى يا هاناي أن الوقت ليس مناسبًا لهذه الزيارة.»

كنتُ قد بدأتُ أستعيد هدوئي وتمالكي لأعصابي، فقلت له: «سنعرف الآن إن كان هذا صحيحًا يا سيدي، ولكني أعتقد أنها جاءت في وقتها تمامًا. أستحلفكم بالله يا سادة أن تخبروني بهوية الرجل الذي خرج من هنا منذ دقيقة.»

قال السير والتر وقد احمرَّ وجهُه غضبًا: «اللورد ألوا.» صحتُ قائلًا: «لم يكن هو، إنه يُشبهه تمامًا، لكنه ليس اللورد ألوا، إنه شخص تعرَّف عليَّ، شخصٌ رأيتُه الشهر الماضي. لم يلبث هذا الرجلُ أن خرج من عتبة الباب حتى اتصلتُ بمنزل اللورد ألوا وعلمتُ بأنه كان قد عاد إلى منزله منذ نصف ساعة وخلد إلى النوم.»

تمتَم شخص ما: «مَن هذا إذن؟»

صحتُ: «جماعة بلاك ستون.» ثم جلستُ على المقعد الذي أصبح شاغرًا منذ قليل ونظرتُ حولي في وجوه الرجال الخمسة المذعورين.

الفصل التاسع

# درجات السُّلَّم التسع والثلاثون

قال المسئول من الأميرالية: «هُراء!»

نهض السير والتر من مكانه وغادر الغرفة بينما ظللنا نحن ننظر إلى الطاولة دون أيِّ تعبيرات على وجوهنا. عاد بعد عشر دقائق مكتئبَ الوجه. قال: «لقد تحدثتُ إلى ألوا وردَّ عليَّ متذمرًا؛ إذ أيقظتُه من نومه. لقد عاد إلى بيته مباشرةً بعد تناول العشاء مع مولروس.»

صاح الجنرال وينستانلي بعنف: «لكن هذا جنون. هل تقصد أن تقول لي إن هذا الرجل جاء إلى هنا وجلس بجواري طوال نصف ساعة تقريبًا وأنا لم أتعرفْ على هذا المحتال؟ لا بد أن ألوا قد فقد عقله.»

قلت له: «ألا ترى مدى الدهاء في هذا الأمر؟ لقد كنتَ مشغولًا بأشياء أخرى عن التمعن في النظر فيه. لقد اعتبرتَ أنه من المسلَّم به أنه هو اللورد ألوا. إن كان أيَّ شخص آخر ربما كنتَ أمعنتَ النظر فيه، لكنه كان من الطبيعي حضورُه إلى هنا، وهذا خدعكم جميعًا.»

بدأ الرجل الفرنسي في الحديث ببطء شديد وبلغة إنجليزية سليمة.

قال: «هذا الشابُّ محقٌّ، وتحليلُه النفسي جيد؛ فأعداؤنا ليسوا أغبياء!»

قطَّب حاجبَيه بحكمة وتحدث مخاطبًا المجموعة.

قال: «سأخبركم بقصة حدثتْ منذ عدة سنوات في السنغال. كنتُ قد عُيِّنتُ في قاعدة نائية، وحتى أُشغلَ وقتي اعتدتُ الذهاب لصيد أسماك باربل الكبيرة في النهر. واعتدتُ أن أحمل سلة غدائي على ظهر مُهْرة عربية صغيرة الحجم من سلالة نقية ذات لون بُنِّيٍّ ضارب إلى البرتقالي، كنتُ قد حصلتُ عليها من مدينة تمبوكتو في مالي في الأيام الخوالي. حسنًا، في صباح أحد الأيام كانت الأمورُ تسير على ما يُرام في تسليتي لكن المُهْرَة كانت

ضجرةً لسبب مجهول. كنت أستطيعُ سماع صوتها وهي تصهل وتئنُّ وتضرب الأرض بأقدامها، وظللتُ أهدِّئها بصوتي بينما كان عقلي منشغلًا بالصيد. كان بوسعي رؤيتُها طوال الوقت، كما كنتُ أظن، بطرف عيني وهي مربوطة في شجرة تبعد نحو عشرين ياردة عني. بعد ساعتين بدأتُ أفكر في تناول الطعام. جمعتُ ما اصطدته من سمك في حقيبة مصنوعة من القماش المشمع، وسرتُ بجوار الجدول المائي نحو المُهْرة، وأنا أسحب صنارتي. حين وصلتُ إليها رميت الحقيبة على ظهرها ...» توقف عن الكلام ونظر حوله.

تابع حديثه قائلًا: «كانت الرائحة هي التي نبَّهتْني؛ فقد أدرتُ رأسي لأجد نفسي أنظر إلى أسدٍ ارتفاعه ثلاث أقدام ... أسد عجوز كان يقتات على البشر وتهابه القرية بأكملها ... ولم يكن قد بقيَ من المُهْرة إلا كتلةٌ من الدماء وعظام وجلد. كان ذلك ما خلَّفه.»

سألتُه: «ماذا حدث؟» كان عندي خبرة كافية في الصيد تجعلني أميِّز القصة الحقيقية حين أسمعها.

«حشرتُ صنارتي بين فكيه، وكان معي مسدس. كذلك أتى خدمي ومعهم بنادق. لكنه ترك علامته عليَّ.» ثم رفع يده التي كان ينقصها ثلاثة أصابع.

قال: «تأملوا الأمر. كانت المُهْرة قد قُتلت منذ أكثر من ساعة، وكان هذا الحيوان المتوحش يراقبني في صبر منذ ذاك الحين. أنا لم أرَ الافتراس قط؛ إذ كنتُ معتادًا على تململ المُهْرة، ولم ألحظ غيابها قط؛ إذ كنتُ أميزها بلونها البُنِّيِّ الفاتح فحسب، وقد حلَّ الأسد محلَّها في ذلك. وهكذا أيها السادة، إذا كنتُ أنا قد ارتكبتُ مثل هذا الخطأ الفادح في أرضٍ تنشط فيها حواسُّ البشر، فلمَ لا يجوز أن نكون قد أخطأنا نحن أيضًا ونحن رجال الحضر المثقلون بالمشاغل؟»

أومأ السير والتر موافقًا. لم يكن يوجد أحدٌ مستعدٌّ لمخالفته في الرأي.

واصل وينستانلي حديثَه قائلًا: «لكني لا أفهمُ. إن هدفهم كان الحصولَ على أماكن التمركز دون علمنا. لم يكن الأمرُ يحتاج سوى أن يذكر أحدُنا هذا الاجتماع لألوا الليلة حتى تُكشفَ الحيلةُ بأكملها.»

ضحك السير والتر ضحكةً جافة وقال: «إن اختيار ألوا يُظهر مدى فطنتهم؛ فمَن منَّا كان من المحتمل أن يتحدث معه عن هذا الليلة؟ أو هل كان ثمة احتمالٌ أن يفتح هو الحديث في هذا الموضوع؟»

تذكرتُ عندها أن رئيس أركان البحرية كان معروفًا بقلة كلامه وضيق مزاجه.

قال الجنرال: «الشيءُ الوحيد الذي يُحيرني هو ما الفائدة التي ستعود على ذلك الجاسوس من زيارته لنا هنا؟ فهو لم يكن ليستطيعَ حفظَ عدة صفحات من الأرقام والأسماء الغريبة في رأسه.»

ردَّ الفرنسي: «ذلك ليس صعبًا؛ فالجاسوس المدرَّب يتمتع بذاكرة فوتوغرافية، مثل جاسوسكم ماكولاي. لقد لاحظتَ أنه لم يقل شيئًا، بل ظلَّ يقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى. أعتقدُ أننا نستطيع افتراض أن كل تفصيلة الآن أصبحتْ مطبوعةً في رأسه. حين كنتُ أصغر سنًّا كنتُ أستطيع القيام بالحيلة نفسها.»

قال السير والتر في حزن: «حسنًا، أعتقدُ أنه ليس أمامنا سوى تغيير الخطط.»

بدا وايتاكر مكتئبًا للغاية. سأل: «هل أخبرتَ اللورد ألوا بما حدث؟ كلَّا؟ حسنًا، لا يمكنني قولُ هذا بتأكيد مطلق، لكني شبه متأكد من أننا لا نستطيع إجراءَ أي تغييرات كبيرة إلا إذا غيَّرنا جغرافية إنجلترا.»

جاء دور روبيه في الحديث، فقال: «ثمة شيء آخر يتعيَّن قوله؛ لقد تحدثتُ بحريَّة حين كان ذلك الرجل موجودًا هنا. لقد قلتُ شيئًا عن المخططات العسكرية لحكومة بلادي؛ فقد كان مسموحٌ لي بقول الكثير من الأمور. إلا أن تلك المعلومات ستكون ذات قيمة هائلة لأعدائنا. كلا يا أصدقائي، أنا لا أرى أيَّ سبيل آخر. لا بد من القبض على هذا الرجل الذي جاء إلى هنا وعلى شركائه، وعلى الفور.»

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! نحن ليس لدينا أيُّ دليل.»

قال ويتاكر: «هذا بالإضافة إلى وجود البريد؛ ففي الوقت الذي نتحدث فيه هذا ستكون الأنباءُ في طريقها إليهم.»

قال الفرنسي: «كلَّا، أنت لا تفهم عاداتِ الجواسيس. إن الجاسوس يحصل بنفسه على مكافأته، ويُسلِّم بنفسه معلوماتِه المخابراتية؛ فنحن في فرنسا نعرف بعض الأمور عن هذا النوع. ما زالتْ أمامنا فرصةٌ يا أصدقائي. فلا بد لهؤلاء الرجال من عبور البحر، ويمكننا تفتيشُ السفن ومراقبة الموانئ. صدقوني إن الحاجة ملحَّة لكلٍّ من فرنسا وإنجلترا.»

بدا أن منطق روبيه السليم الرصين قد جمعنا على قلب رجل واحد. لقد كان رجلَ أفعال بين أناس متخبطين. إلا أنني لم أرَ أملًا باديًا على أي وجه، ولم أكن أشعر بأي أمل على الإطلاق. فأين، وسط خمسين مليون من سكان هذه الجزر وفي غضون عشر ساعات، كنا سنُمسك بثلاثة من أذكى المحتالين في أوروبا؟

فجأة جاءني إلهام.

صحتُ إلى السير والتر: «أين مفكرة سكادر؟ بسرعة، يا رجل، فأنا أتذكر شيئًا فيها.»

فتح قفل باب مكتبه وأعطاها لي.

وجدتُ المكان. قرأتُ عليهم «تسع وثلاثون درجة سُلَّم»، وأعدتُها مرةً أخرى «تسع وثلاثون درجة سُلَّم عددتُها في ذروة المد ١٠:١٧ مساءً».

كان موظف الأميرالية ينظر إليَّ كما لو كان يعتقد أني قد فقدتُ عقلي.

صحتُ قائلًا: «ألا ترون أنه دليل. لقد علم سكادر بمكان اختباء هؤلاء الرجال، وعلم من أين سيغادرون البلد، إلا أنه احتفظ بالاسم لنفسه. غدًا هو اليوم المنشود، وهو في مكانٍ تحدث فيه ذروةُ المد في الساعة العاشرة و١٧ دقيقة.»

قال أحدهم: «ربما يكونون قد غادروا الليلة.»

«ليس بعد؛ فهم لهم أسلوبهم السري الآمن، ولن يتعجلوا في ذلك. أنا أعرف الألمان، فهم مهووسون بالالتزام بالخطط. أين، بحق الشيطان، يمكنني الحصولُ على دليل جداول المد والجزر؟»

تهلَّل وجهُ وايتاكر وقال: «إنها فرصة سانحة. دعونا نذهب إلى الأميرالية.»

ركبنا جميعًا سيارتين من السيارات التي كانت في الانتظار، فيما عدا السير والتر، الذي ذهب إلى سكوتلاند يارد «لحشد قوات ماكجيليفراي» على حدِّ قوله. سرنا عبر الممرات الخاوية ومررنا بالغرف الكبيرة الخالية من الأثاث حيث كانت الخادمات منشغلات بالعمل، حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة تصطفُّ فيها الكتب والخرائط. اكتشفنا وجود كاتب مقيم، أحضرَ لنا في الحال دليلَ جداول المد والجزر من مكتبة الأميرالية. جلستُ على المكتب ووقف الآخرون من حولي، فبطريقة أو بأخرى كنتُ قد أصبحت مسئولًا عن هذه الرحلة الاستكشافية.

لم يُجدِ هذا نفعًا؛ إذ كان ثمة مئات من البيانات المسجلة، وبحسب ما رأيتُ فيمكن للساعة ١٠:١٧ أن تشمل خمسين مكانًا. كان لا بد لنا من إيجاد طريقة ما تُمكِّنُنا من تضييق نطاق الاحتمالات.

وضعتُ رأسي بين يديَّ وأخذتُ أفكر. لا بد من وجود طريقةٍ ما لاستقراء هذا اللغز. ماذا كان سكادر يقصد بدرجات السُّلم؟ فكرتُ في سلم رصيف الميناء، لكنه لو كان يقصد هذا فلا أعتقد أنه كان سيذكر عدد الدرجات. لا بد من أنه مكان ما به العديد من السلالم، وواحد منها فقط يمتاز عن الآخرين بعدد درجاته التسع والثلاثين.

بعدها خطر لي خاطرٌ فجأة، فراجعتُ جميعَ السفن البخارية. لم أعثر على سفينة واحدة تغادر إلى القارة الأوروبية في الساعة العاشرة و١٧ دقيقة مساءً.

لماذا كانت ذروة المد مهمة لهذه الدرجة؟ إن كان المقصود ميناءً فلا بد أنه مكان صغير للمد فيه أهمية كبيرة، وإلا كانت سفينة ثقيلة ذات غاطس ضحل. إلا أنه لم يكن ثمة باخرةٌ عادية تُبحر في ذلك التوقيت، وبطريقة ما لم أكن أعتقد أنهم كانوا سيسافرون بسفينة كبيرة من ميناء عادي؛ لذا لا بد أن المقصود ميناء صغير يكون فيه المدُّ والجزر مهمًّا أو ربما لم يكن المقصود ميناءً على الإطلاق.

إلا أنه لم يكن بوسعي أن أرى دلالةً لدرجات السلم إن كان ميناءً صغيرًا؛ فأنا لم أرَ في أي ميناء على الإطلاق مجموعاتٍ من السلالم. لا بد أنه مكان ما به درجات سلم مميزة، ويصل فيه المدُّ إلى أقصى ارتفاعه في الساعة العاشرة و١٧ دقيقة. إجمالًا بدا لي أن هذا المكان لا بد أن يكون ساحلًا مفتوحًا. إلا أن درجات السلم ظلت تُحيِّرني.

انتقلتُ بعد ذلك إلى اعتبارات أوسع نطاقًا. فأين يمكن لشخص أن يُغادر متجهًا إلى ألمانيا، شخص على عجلة من أمره، ويريد معبرًا سريعًا وسريًّا؟ بالطبع لن يكون هذا عبر الموانئ الكبرى، ولن يكون أيضًا عبر بحر المانش أو طريق الساحل الغربي أو اسكتلندا، لأنه، كما تذكرون، سيتحرك من لندن. قستُ المسافة على الخريطة وحاولتُ وضع نفسي مكان أعدائي. لا بد لي من التوجه إما إلى مدينة أوستند أو أنتويرب في بلجيكا أو مدينة روتردام في هولندا، ولا بد لي من الإبحار من مكان ما على الساحل الشرقي بين مدينتَي كرومر ودوفر.

كل هذا كان محضَ تخمين، وأنا لا أدَّعي أنه كان تخمينًا ذكيًّا أو علميًّا؛ فأنا لم أكن أُشبه شيرلوك هولمز على الإطلاق، لكني طالما شعرتُ أنني أمتلك موهبة فطرية لحلِّ مثل هذه القضايا. لا أدري إن كان بوسعي شرح ما أعنيه، لكني اعتدتُ استخدام قواي العقلية قدر طاقتها، وبعدما أصل إلى طريق مسدود كنتُ أبدأ في التخمين، وعادةً ما كان تخميني يصيب.

لذلك كتبتُ جميع استنتاجاتي على قطعة من ورق الأميرالية، وكانت كالتالي:

**حقائق أكيدة**

(١) مكان به العديدُ من السلالم؛ وأحدها يتميَّز بأنه يتكوَّن من تسع وثلاثين درجة.

(٢) ذروة المد في الساعة العاشرة و١٧ دقيقة مساءً. مغادرة اليابسة لا يمكن أن تحدث إلا في ذروة المد.

(٣) درجات السلم هذه ليست درجات سلم رصيف ميناء؛ لذا فعلى الأرجح هذا المكان ليس ميناءً.
(٤) لا يوجد باخرة عادية تغادر في العاشرة و١٧ دقيقة. لا بد أن وسيلة الانتقال ستكون إما سفينةً غير نظامية (غير محتمل)، أو يختًا، أو مركبَ صيد.

هنا توقفتِ استنتاجاتي المنطقية، وصنعتُ قائمة أخرى تحت عنوان «تخمينات»، لكني كنتُ متأكدًا مما فيها من نقاط تمامًا كالموجودة في القائمة الأخرى.

## تخمينات

(١) المكان ليس ميناءً وإنما ساحل مفتوح.
(٢) الوسيلة سفينة صيد صغيرة أو يخت أو زورق بخاري.
(٣) المكان منطقة ما على الساحل الشرقي بين كرومر ودوفر.

بدا لي أنه من الغريب أنني أجلس على هذا المكتب مع وزير في الحكومة، ومارشال، واثنين من كبار المسئولين في الحكومة، وجنرال فرنسي، وجميعهم يراقبونني وأنا أحاول استنباط سرٍّ من كتابات رجل متوفًّى؛ سرٌّ كان بمثابة مسألة حياة أو موت لنا جميعًا.

كان السير والتر قد انضم إلينا، ووصل معه ماكجيليفراي. كان قد أرسل تعليماتٍ بمراقبة الموانئ ومحطات السكك الحديدية من أجل العثور على ثلاثة رجال كنتُ أعطيتُ أوصافَهم للسير والتر. ولم يكن هو أو أي شخص آخر يظنُّ أن هذا سيُجدي نفعًا كبيرًا.

قلتُ: «ها هو أقصي ما أستطيعُ استنتاجه. لا بد أن نعثر على مكان به الكثير من السلالم المؤدية إلى الشاطئ، وأحد هذه السلالم يتكوَّن من تسع وثلاثين درجة. أعتقد أنه مكانٌ على ساحل مفتوح به منحدرات كبيرة، في مكان ما بين خليج ووش وبحر المانش. وهو أيضًا مكان يصل فيه المدُّ إلى ذروته في الساعة العاشرة و١٧ دقيقة من ليلة الغد.»

ثم واتتني فكرةٌ. قلتُ: «هل يوجد مفتش من خفر السواحل، أو شخص كهذا، على دراية بالساحل الشرقي؟»

قال وايتاكر إن هذا الشخص موجود، وإنه يعيش في مقاطعة كلافام. غادر في سيارة لإحضار الرجل، وجلس بقيتُنا في أرجاء الغرفة الصغيرة وظللنا نتحدث عن أي شيء يتبادر إلى أذهاننا. أشعلتُ غليونًا وراجعت المعلومات جميعها مرةً أخرى حتى أُنْهِك تفكيري.

في نحو الساعة الواحدة صباحًا وصل هذا الرجل من خفر السواحل. كان رجلًا طاعنًا في السن تبدو عليه ملامحُ ضابط في البحرية، وأظهر احترامًا بالغًا نحو مجموعتنا. تركتُ لوزير الحربية مهمةَ استجوابه؛ إذ شعرتُ أنه سيعتقد أن من الوقاحة أن أتحدث في وجوده.

«نريدك أن تخبرَنا بالأماكن التي تعرفها على الساحل الشرقي والتي يوجد بها جروف بحرية، ويوجد بها عدةُ مجموعات من درجات السلالم التي تؤدي إلى الشاطئ.»

فكَّر الرجل قليلًا، ثم قال: «أي درجات سلالم تعني يا سيدي؟ يوجد الكثيرُ من الأماكن التي بها طرقٌ تمتدُّ عبر الجروف البحرية، ومعظم هذه الطرق به درجة سلم أو درجتان. أم هل تعني سلالم عادية كلها درجات، إن جاز القول؟»

نظر السير آرثر تجاهي، فقلتُ للرجل: «نحن نقصدُ درجات سلم عادية.»

ظلَّ يفكر لدقيقة أو اثنتين، ثم قال: «أنا لا أعرف مكانًا بهذا الوصف. انتظروا لحظة يوجد مكان في نورفوك براتلشام بجوار ملعب جولف، به مجموعة من السلالم تُمكِّن اللاعبين من إحضار الكرات المفقودة.»

قلتُ: «ليس هذا هو المكان.»

«إذن يوجد الكثيرُ من الساحات البحرية، إذا كان هذا ما تقصدونه. كلُّ منتجع على ساحل البحر يحتوي عليها.»

هززتُ رأسي نفيًا وقلتُ: «لا بد أن يكون أكثرَ عزلة من ذلك.»

«حسنًا أيها السادة، لا يمكنني التفكيرُ في أي مكان آخر. بالطبع يوجد أيضًا الروف.»

سألته: «ما هذا؟»

«إنه الرأس البحري الطباشيري الكبير في كِنت، بالقرب من برادجيت. إنه يحتوي على العديد من الفيلات على قمته، وبعض المنازل بها سلالم تؤدي إلى شاطئ خاص في الأسفل. إنه مكان راقٍ للغاية وسكَّانه يُفضِّلون العزلة.»

فتحتُ دليلَ جداول المد، ووجدت اسم برادجيت. كانت ذروةُ المدِّ فيها تحدث في العاشرة و١٧ دقيقة في الخامس عشر من يونيو.

صحتُ بحماس: «وصلنا أخيرًا لضالتنا. كيف يمكنني معرفةُ حركة المدِّ عند الروف.»

قال الرجل من خفر السواحل: «يمكنني أنا أن أخبرك بها يا سيدي، ذات مرة أعارني أحدُهم منزلَه هناك في هذا الشهر بالضبط، واعتدتُ الخروج ليلًا للصيد في المياه العميقة؛ فالمدُّ يحدث قبل برادجيت بعشر دقائق.»

أغلقتُ الدليل ونظرتُ حولي إلى المجموعة.

قلتُ: «إذا كان أحدُ السلالم مكوَّنًا من تسع وثلاثين درجة نكون قد حللنا اللغز يا سادة. أريد استعارة سيارتك يا سير والتر، وخريطة للطرق. وإذا أمكن للسيد ماكجيليفراي أن يُعيرَني عشر دقائق من وقته، أعتقد أنه يمكننا إعدادُ شيء من أجل الغد.»

كانت سخافة مني أن أتولَّى زمام المسألة على هذا النحو، لكن لم يبدُ أن أحدهم كان يُمانع هذا؛ ففي النهاية أنا متورطٌ في الأمر من بدايته، هذا بالإضافة إلى أنني كنتُ معتادًا على المهام الصعبة، ولم يكن هؤلاء الرجال البارزون الأذكياء ليفوتَهم ملاحظة هذا. كان الجنرال روييه هو من أعلن تفويضي. قال: «أنا عن نفسي يُسعدني تركَ هذه المسألة في عهدة السيد هاناي.»

في تمام الثالثة والنصف كنتُ أشقُّ طريقي عبر طرق كِنت المسيجة والمضاءة بضوء القمر، وفي المقعد المجاور لي يجلس أفضل رجال ماكجيليفراي.

الفصل العاشر

# تجمع مختلف الأطراف على ساحل البحر

طلع عليَّ في برادجيت صباحُ يوم من أيام شهر يونيو يكتسي باللونين الوردي والأزرق بينما كنتُ أنظر من فندق جريفن المطل على بحر هادئ، إلى المنارة العائمة في منطقة شاطئ كوك الرملي والتي كانت تبدو في حجم طافية جَرَسِيَّة. على بُعد بضعة أميال جنوبًا وبالقرب من الشاطئ كانت مدمرة صغيرة راسية. كان سكيف، الرجل التابع لماكجيليفراي، والذي كان فيما مضي في البحرية، يعرف هذه السفينة وأخبرني باسمها واسم قائدها؛ لذا أرسلتُ برقية للسير والتر.

بعد الإفطار حصل سكيف من وكيل تأجير المنازل على مفتاح لبوابات السلالم الموجودة في الروف. سرتُ معه على الرمال، وجلستُ في زاوية من زوايا الجروف البحرية بينما ذهب هو لاستكشاف ستة منها. لم أُرِدْ لأحد أن يراني، لكن المكان في هذه الساعة كان شبهَ مهجور، وطوال فترة بقائي على الشاطئ لم أرَ شيئًا عدا طيور النورس.

استغرق أكثر من ساعة في أداء هذه المهمة، وحين رأيتُه عائدًا نحوي، يتفحص قطعة من الورق، يمكنني أن أقول لكم إن قلبي كاد يخرج من صدري. فكما ترون، كان كل شيء يعتمد على أن تثبت صحة تخميني.

قرأ بصوت مسموع عددَ الدرجات في كل سلم. قال: «أربعة وثلاثون، خمسة وثلاثون، تسعة وثلاثون، اثنتان وأربعون، سبعة وأربعون»، و«واحد وعشرون» في الأماكن التي تصبح فيها الجروف أكثرَ انخفاضًا. كدتُ أنتفضُ من مكاني وأصيح.

أسرعنا بالعودة إلى البلدة وأرسلنا برقيةً إلى ماكجيليفراي. أردتُ منه إحضارَ نصف دستة من الرجال، وأمرتُهم بتقسيم أنفسهم بين فنادق محددة مختلفة. بعدها ذهب سكيف إلى استكشاف المنزل على الرأس البحرية ذات الدرجات التسع والثلاثين.

عاد بأخبارٍ حيَّرتْني وطمأنتْني في الوقت نفسه. كان المنزل يُدعى «ترافلجار لودج»، وكان يمتلكه سيدٌ كبير السن يُدعى أبلتون وهو سمسار بورصة متقاعد، وهذا حسب وكيل تأجير المنازل. كان السيد أبلتون يقضي وقتًا طويلًا في المنزل في فترة الصيف، وكان موجودًا فيه الآن وقضى فيه معظمَ هذا الأسبوع. لم يستطع سكيف الحصولَ إلا على قدر قليل للغاية من المعلومات عن الرجل؛ فلم يعرف إلا أنه رجلٌ مهذَّب طاعن في السن، يدفع فواتيره بانتظام، وكان دومًا ما يدفع المال بسخاء لإحدى الجمعيات الخيرية المحلية. ثم بدا أن سكيف قد دخل من الباب الخلفي للمنزل متظاهرًا بأنه وكيل بيع ماكينات خياطة. لم يرَ إلا ثلاث خدمٍ فقط؛ طباخة وخادمة ووصيفة، وكانوا جميعًا من النوع الذي تعثر عليه في منزل محترم من منازل الطبقة المتوسطة. لم تكن الطباخة من النوع الكثير الكلام وسرعان ما أغلقتِ الباب في وجه سكيف، لكنه قال إنه متأكد من أنها لم تكن تعرف شيئًا. وجد بجوار هذا المنزل بناية سكنية جديدة يمكن أن تمثِّل غطاءً جيدًا للمراقبة، وكانت الفيلا الموجودة على الجانب الآخر معروضةً للإيجار، وحديقتها غير مشذبة وكثيفة الشجيرات.

استعرتُ تليسكوب سكيف وذهبتُ قبل الغداء في تمشية على الروف. ظللت خلف صفوف الفيلات، وعثرتُ على موضع جيد للمراقبة على حافة ملعب الجولف. استطعتُ من هناك رؤية خط الغطاء النباتي على طول قمة الجرف، مع وجود مقاعد على مسافات متباعدة، والقطع المربعة الصغيرة من الأرض المحاطة بسياج ومزروعة بشجيرات، من حيث يهبط السلم إلى الشاطئ. رأيت «ترافلجار لودج» بوضوح شديد، وقد كان عبارة عن فيلا مصنوعة من القرميد الأحمر وبها شرفة، وملعب تنس في الخلف، وفي الأمام حديقة زهور من النوع المعتاد وجودُه على ساحل البحر مليئة بزهور الأقحوان ونباتات الغرنوقي النحيل. رأيتُ ساريةَ علمٍ يتدلَّى بتراخٍ منها علمُ المملكة المتحدة الضخم في الهواء الساكن.

بعد قليل لاحظتُ أن أحدًا يغادر المنزل، ويمشي ببطء على طول الجرف. حين وجهتُ التلسكوب نحوه رأيت أنه كان الرجلَ العجوز، مرتديًا بنطالًا صوفيًّا أبيض اللون، وسترة صوفية زرقاء وقبعة من القش. كان يحمل منظارًا ميدانيًّا وصحيفة وجلس على أحد المقاعد الحديدية وبدأ في القراءة. أحيانًا كان يضع الصحيفة جانبًا ويوجه منظاره نحو البحر. ظلَّ ينظر طويلًا إلى المدمرة. ظللتُ أراقبه لنصف ساعة، حتى نهض وعاد إلى المنزل لتناول غدائه، وعندها عُدتُ إلى الفندق لتناول غدائي.

لم أكن أشعر بثقة كبيرة؛ فهذا المسكن العادي المحترم لم يكن ما توقعتُ العثور عليه. ربما كان هذا الرجل هو عالمَ الآثار الأصلع من مزرعة الأرض السَّبَخة المروعة، أو ربما كان شخصًا آخر. كان بالضبط من نوعية كبار السن القنوعين الذين تجدهم في كل ضاحية وكل أماكن العطلات. إذا أردتَ أن تجد أشخاصًا من النوع غير المؤذي على الإطلاق فمن المرجح أن تختار ذلك النوع.

إلا أنه بعد الغداء، وأنا أجلس في شرفة الفندق، ازددتُ حماسًا؛ إذ رأيتُ الشيء الذي آملتُ رؤيته وخشيتُ أن تفوتني رؤيتُه. جاء يختٌ من جهة الجنوب وألقى مرساته في مكان مقابل للروف. بدا أنه يزن نحو مائة وخمسين طنًّا، ورأيتُ أنه ينتمي إلى أسطول الراية البيضاء البحري. لهذا ذهبنا أنا وسكيف إلى الميناء واستأجرنا مراكبيًّا من أجل رحلة صيد في فترة بعد الظهيرة.

قضيتُ فترة بعد ظهيرة دافئة ومسالمة، واصطدنا نحو عشرين رطلًا من سمك القد والبولاك، ومن داخل البحر الأزرق المتهادي استطعتُ رؤية الأشياء على نحوٍ أفضل. رأيتُ فوق جروف الروف البحرية البيضاء الفيلات الخضراء والحمراء، وخاصةً سارية العلم الضخمة في «ترافلجار لودج». حوالي الساعة الرابعة، حين اكتفينا بما اصطدناه، جعلتُ المراكبي يجدف بنا حول اليخت، الذي كان يقف مثلَ طائر أبيض لطيف، مستعدًّا في أي لحظة للهرب. قال سكيف إن بنيتَه تُوحي بأنه لا بد وأن يكون مركبًا سريعًا ومزوَّدًا بمحرك قوي.

كان اسم اليخت «أريادني»، كما اكتشفتُ من قبعة أحد الرجال الذي كان يُلمِّع الحلية النحاسية. تحدثتُ إليه وحصلتُ منه على إجابة بلهجة إيسيكس السريعة. جاء عامل آخر وأخبرني كم كانت الساعة بلهجة إنجليزية لا تخطئها الأذن. دخل المراكبي في جدال مع أحدهما حول الطقس، ولبضع دقائق ظللنا واقفَين في مكاننا بالقرب من الجزء الأيمن من مقدمة السفينة.

فجأة أهملَنا الرجلان تمامًا وانحنيَا على عملهما مع صعود ربان على السطح. كان شابًّا لطيفًا ونظيف المظهر، وطرح علينا سؤالًا بشأن رحلة صيدنا بلغة إنجليزية سليمة. إلا أنه لم يكن ثمة شكٌّ بشأن هويته؛ فشعرُه القصير وشكل ياقته ورابطة عنقه لم تكن تنتمي مطلقًا لإنجلترا.

طمأنني ذلك بعضَ الشيء، لكن لم أستطعِ التخلصَ من شكوكي المستعصية في أثناء عودتنا إلى برادجيت. كان ما يقلقني هو فكرة أن أعدائي كانوا يعرفون أنني كنتُ قد

استقيتُ معلوماتي من سكادر، وأن سكادر هو مَن أعطاني الدليلَ الموصل إلى معرفة هذا المكان. وإن كانوا يعرفون بأن سكادر كان يعلم بشأن هذا المكان، أليس من شبه المؤكد أن يُغيِّروا خُططَهم؟ فكثيرٌ من الأمور تعتمد على نجاحهم في مهمتهم ومن ثَمَّ ما كانوا ليخاطروا. كانت المسألة كلُّها تتعلق بقدر معرفتهم بما لدى سكادر من معلومات. لقد تحدثتُ ليلة أمس بثقة عن التزام الألمان دومًا بما يضعونه من خطط، ولكن إن ساورهم أيُّ شكوك بأني أتعقب خُطاهم فسيكونون حمقى إن لم يعملوا على إخفائها. تساءلتُ عما إذا كان الرجل الذي كنتُ قد رأيتُه ليلة أمس قد أدرك أني تعرفتُ عليه. لسبب ما لم أعتقد أنه فعل، وظللتُ متشبثًا بهذا الاعتقاد. إلا أن المهمة بأكملها لم تبدُ أبدًا بمثل صعوبة فترة بعد الظهيرة تلك، التي لا شك أنه كان يُفترض بي الفرح فيها بتحقيق نجاح مؤكَّد.

التقيتُ في الفندق بقائد المدمرة، الذي قدمني سكيف إليه، وتبادلتُ معه بضعَ كلمات. بعدها فكرتُ في قضاء ساعة أو ساعتين في مراقبة «ترافلجار لودج».

عثرتُ على مكانٍ أبعد قليلًا أعلى التل، في حديقة أحد المنازل الخالية. من هذا المكان استطعتُ رؤية ساحة المنزل بالكامل، حيث رأيتُ شخصين يلعبان مباراة تنس. أحدهما كان الرجلَ الكبير السن، الذي كنتُ قد رأيتُه بالفعل، والآخر كان رجلًا شابًّا يلفُّ وشاحًا، به بعض الألوان الزاهية، حول خصره. كانَا يلعبان بحماس شديد، كأنهما رجلان من سكان المدينة يريدان ممارسةَ بعض الرياضة العنيفة من أجل تفتيح مسام جلدهم. لا يمكنك تصوُّرُ رؤية مشهدٍ أكثر براءة من هذا. كانَا يصيحان ويضحكان وتوقفَا لتناول المشروبات، عندئذٍ أحضرتْ لهما خادمةٌ كوبَين من الجعة على صينية. حككتُ عيني وسألتُ نفسي عما إذا كنتُ أكثرَ الأشخاص حمقًا على وجه الأرض؛ فقد كان الغموض والظلام يحيطان بالرجال الذين كانوا يطاردونني في الأراضي السَّبَخة الاسكتلندية في طائرة وسيارة، وعلى وجه الخصوص بهذا الأثري اللعين. كان من السهل ربطُ أولئك الناس بالسكين التي اخترقتْ صدرَ سكادر إلى الأرض، وبمخططات مميتة تُهدِّد السلام العالمي. إلا أنني هنا كنتُ أرى أمامي مواطنَين ساذجَين يمارسان رياضتهما البريئة، وكانَا على وشك الدخول إلى المنزل لتناول وجبة عشائهما الروتينية، حيث سيتحدثان عن أسعار السوق والنتائج الأخيرة لمباريات الكريكت وما يتردد من ثرثرة على ألسنة المحليين. لقد كنتُ أصنع شبكةً من أجل الإمساك بالنسور والصقور، ويا للعجب! سقط فيها طائرَا سمنة بدينان عن طريق الخطأ.

في هذا الوقت وصل شخصٌ ثالث، شابٌّ على دراجة، يحمل حقيبة من مضارب الجولف معلقة على ظهره. التفَّ حول أرض ملعب التنس المكسوة بالحشائش، وتلقَّى ترحيبًا صاخبًا من اللاعبين. من الواضح أنهما كانَا يُمازحانه وبدا مزاحُهما بلغة إنجليزية أكيدة. بعدها أعلن الرجل البدين، وهو يمسح جبينه بمنديل من الحرير، أنه لا بد له من الذهاب إلى الاغتسال. سمعتُ كلماتِه بوضوح عندما قال: «لا بد لي من أغمر نفسي برغوة هائلة. إن هذا سيعمل على إنقاص وزني واختفاء إعاقتي يا بوب. سأتغلب عليك غدًا في مباراة الجولف وسأُدْخِل الكرة في الحفرة بضربة واحدة.» لا يمكنك تصورُ شيءٍ إنجليزيٍّ أكثر من هذا.

دخلوا جميعًا داخل المنزل، وتركوني وأنا أشعر بأني أحمقُ كبير. لقد أضعتُ وقتي في المكان الخطأ. ربما كان هؤلاء الرجال يمثِّلون، لكن إن كانوا كذلك، فأين الجمهور الذي يُشاهدهم؟ لم يكونوا يعلمون بجلوسي على بُعد ثلاثين ياردة بين أشجار الورد. ببساطة كان من المستحيل تصديقُ أن هؤلاء الرجال المليئين بالحماسة كانوا أيَّ شيء بخلاف ما كانوا يبدون عليه؛ ثلاثة رجال إنجليز عاديون من سكان الضواحي محبون لممارسة الرياضة، مملون قليلًا، لكنهم أبرياء على نحوٍ مقيت.

ومع ذلك كانوا ثلاثةَ أشخاص؛ أحدُهم رجل كبير السن، وأحدهم بدين الجسم، والآخر نحيل وداكن البشرة، وكان منزلهم متوافقًا مع ملاحظات سكادر، وعلى بُعد نصف ميل منه كان يقف يختٌ بخاري عليه ضابط ألماني واحد على الأقل. فكرتُ في كارولیدس مستلقيًا ميتًا وجميع أنحاء أوروبا ترتجف وعلى شفير التعرض لهزة ستزلزلها، والرجال الذين تركتهم ورائي في لندن الذين ينتظرون بلهفة الأحداث التي ستشهدها الساعات القادمة. لا شك في أن جحيمًا كان يستعرُ في مكان ما الآن. لقد انتصرتْ جماعة بلاك ستون، وإذا قُدِّر لها البقاءُ إلى ما بعد هذه الليلة في شهر يونيو فستحصد ثمارَ انتصاراتها.

لم أجد أمامي إلا خيارًا واحدًا وهو أن أمضيَ قُدُمًا كما لو أنه لم تكن تُساورني أيُّ شكوك، وإذا كنتُ سأتصرف بحماقة فعليَّ فعلُ هذا بالطريقة المثلى. لم أواجهْ في حياتي قط عملًا كريهًا أكثر من هذا. فكَّرتُ آنذاك أنه أهونُ عليَّ الدخول إلى وكر من أوكار أنصار الفوضى، الذين يحمل كلٌّ واحد منهم سلاحَه، أو مواجهة أسد فتَّاك بمسدس صوت، على دخول هذا المنزل السعيد لهؤلاء الرجال الإنجليز الثلاثة وإخبارهم بأن حيلتهم قد انكشفت. كم كانوا سيسخرون مني!

إلا أنني فجأةً تذكَّرتُ شيئًا سمعتُه ذات مرة في روديسيا من العجوز بيتر بينار. وقد استشهدتُ بأقوال هذا الرجل من قبلُ في هذه القصة. لقد كان أفضلَ مستكشف عرفتُه

على الإطلاق، وقبل أن يُصبح شخصًا ملتزمًا، كثيرًا ما كان مخالفًا للقانون ومطلوبًا من السلطات. ناقش معي بيتر ذات مرة مسألةَ التنكُّر؛ فقد كانت لديه نظريةٌ خطرتْ على ذهني في هذا الوقت. قال لي إنه باستثناء الحقائق الدامغة مثل بصمات الأصابع؛ فإن السمات الجسدية قلما تُستخدم في تحديد الهوية إذا كان الهارب من العدالة متقِنًا لعمله. لقد كان يسخر من أشياء مثل صبغ الشعر ووضع لحية زائفة ومثل هذه الحماقات الصِّبيانية. فالشيء الوحيد الذي كان يراه بيتر مهمًّا هو ما أطلق عليه «الجو العام».

فإذا استطاع رجلٌ التواجد في محيط مختلف كليًّا عما كان فيه حين رُصد لأول مرة، والأهم من ذلك التكيُّف مع هذا المحيط والتصرف كما لو أنه اعتاد التواجد فيه طوال حياته، فإنه سيتمكن من إرباك أذكى المحققين على وجه الأرض. واعتاد أن يقصَّ عليَّ كيف أنه استعار مِعطفًا أسودَ ذات مرة وذهب إلى الكنيسة وتشارك نفس كتاب التراتيل مع الرجل الذي كان يبحث عنه. فلو أن هذا الرجل قد رآه في صحبة أشخاص محترمين من قبل لكان تعرَّف عليه، لكنه لم يره قط إلا وهو يُروِّع الناس في الحانات بالمسدسات. حين تذكرتُ حديث بيتر هذا شعرتُ براحة حقيقية لأول مرة طوال هذا اليوم؛ فقد كان بيتر رجلًا مسنًّا حكيمًا، وهؤلاء الرجال الذين أُطاردهم كانوا الأفضلَ في مجالهم. ماذا لو أنهم كانوا يُطبِّقون حيلة بيتر؟ فالأحمق هو من يسعى لتغيير شكله، أما الرجل الذكي فيكون مختلفًا لكن دون تغيير شكله.

مرةً أخرى، كانت حكمة بيتر الأخرى هي التي ساعدتني حين كنتُ ألعب دور عامل إصلاح الطريق؛ «إذا كنتَ تؤدي دورًا، فإنك لن تُتقنَه إلا إن أقنعتَ نفسك بتقمُّصِه». وهذا من شأنه أن يُفسِّرَ مباراة التنس. هؤلاء الرجال لم يكونوا بحاجة إلى التمثيل؛ فكلُّ ما فعلوه هو أنهم أدخلوا أنفسهم في حياة أخرى، تصرَّفوا فيها بطبيعية كأنها حياتُهم الحقيقية. بدتْ هذه فكرة مبتذلة، لكن بيتر اعتاد القولَ إن هذا هو أكبر سرٍّ لجميع المجرمين المشهورين.

كانت الساعة في هذا الوقت تقترب من الثامنة، وكنتُ قد عُدتُ والتقيتُ بسكيف لأعطيَه تعليماتي. رتبتُ معه الطريقة التي سينشر بها رجاله، ثم ذهبتُ للتمشية؛ إذ لم أشعر برغبة في تناول العشاء. سرتُ حول ملعب الجولف الفارغ، ثم إلى موضع على الجروف الساحلية أبعد إلى الشمال خلف صفِّ الفيلات.

التقيتُ في الطرق المصنوعة حديثًا ذات الحالة الجيدة أناسًا يرتدون ملابسَ قطنية عائدين من لعب التنس ومن الشاطئ، وشخصًا من خفر السواحل من المحطة اللاسلكية،

وحمير ومهرجين عائدين إلى منازلهم. وفي البحر رأيتُ في ضوء الغسق الأزرق أنوارًا على يخت «أريادني» وعلى المدمرة الراسية بعيدًا جهة الجنوب، وخلف شاطئ كوك الرملي رأيتُ أنوارًا أكبر لباخرة تشقُّ طريقها نحو نهر التيمز. كان المشهد بأكمله مسالمًا وعاديًّا مما جعلني أزداد حزنًا في كل ثانية. عقدتُ كلَّ العزم على الذهاب نحو «ترافلجار لودج» في نحو التاسعة والنصف.

في طريقي شعرتُ بشيء من الراحة حين رأيتُ كلبًا من كلاب الصيد يمشي في أعقاب مربِّية أطفال. ذكَّرني هذا الكلبُ بكلبٍ كنتُ أمتلكه في روديسيا، وتذكرتُ حين خرجتُ به للصيد في بالي هيلز. كنا نُلاحق ظبْي ريبك من النوع الكستنائي الفاتح، وتذكرتُ كيف تبِعتُ أنا وهو حيوانًا واحدًا وهرب منا نحن الاثنين تمامًا؛ فكلابُ الصيد تعتمد على حاسة الإبصار، ونظري لا بأس به، لكن هذا الظبي اختفى ببساطة من المشهد تمامًا. اكتشفتُ فيما بعدُ كيف استطاع فعل هذا؛ فأمام التشكيلات الصخرية الرمادية الحديثة التكوين توارى عن الأنظار تمامًا كأنه غرابٌ أمام سحابة رعدية. لم يكن الظبْي بحاجة إلى الركض بعيدًا؛ فكل ما كان عليه فعْله هو أن يقف ساكنًا فيختفي شكله في الخلفية المحيطة.

فجأةً، بينما كانت هذه الذكريات تتلاحق في ذهني، فكرتُ في القضية التي أنا بصددها وطبَّقتُ المغزى من هذه الذكريات؛ فلم تكن جماعة بلاك ستون بحاجة إلى الهرب؛ فقد توارَوا عن الأنظار في المشهد المحيط بهم. لقد كنتُ أسير على الدرب الصحيح، وضعتُ هذا في ذهني وتعهدتُ بألا أنساه قط. الجملة الأخيرة كانت لبيتر بينار.

كان يُفترض برجال سكيف أن يكونوا في أماكنهم الآن، لكني لم أرَ أثرًا لأي شخص. كان المنزل في مكان واضح كأنه سوقٌ يمكن لأي شخص أن يلاحظ وجوده. لم يكن يفصله عن طريق الجرف إلا سياجٌ بارتفاع ثلاث أقدام، وكانت النوافذ في الطابق الأرضي جميعها مفتوحة، وأظهرت الأضواء الخافتة والأصوات الخفيضة المكان الذي كان قاطنوه ينتهون فيه من تناول وجبة العشاء. كان كلُّ شيء علنيًّا وواضحًا كأنه سوق خيري. فتحتُ البوابة الخارجية للمنزل، وأنا أشعر بأني أكبرُ مغفل في العالم، ورننتُ الجرس.

يتأقلم رجل على شاكلتي، جاب العالمَ وذهب إلى أماكنَ وعرة، بطريقة جيدة للغاية مع طبقتَين من البشر، ما نُطلق عليه الطبقات العليا والطبقات الدنيا. إنه يفهمهم جيدًا وهم يفهمونه أيضًا. لقد أَلِفتُ التعامل مع رعاة الأغنام والمتسولين وعمال إصلاح الطرق، وتعاملتُ بأريحية كافية مع أناس من أمثال السير والتر والرجال الذين كنتُ قد التقيتُ بهم الليلة قبل الماضية. لا يمكنني تفسيرُ السبب في هذا، لكن هذه هي الحقيقة. إلا أن

أناسًا مثلي لا يستطيعون فهمَ عالم الطبقة الوسطى الرغد والقانع، أولئك الأشخاص الذين يعيشون في الفيلات والضواحي؛ فأنا لا أُدرك طريقة نظرتهم للأشياء، ولا أفهم قناعاتهم، وأخشاهم مثلما أخشى أفعى المامبا السوداء. حين فتحَتْ لي خادمة الردهة الأنيقة البابَ كان صوتي متحشرجًا.

سألتُ عن السيد أبلتون، فأدخلتْني. كانت خُطَّتي أن أسير مباشرةً إلى غرفة الطعام، وبظهوري المفاجئ أمامهم سيجفل الرجال من مرآي حين يتعرفون عليَّ وهو الأمر الذي سيؤكد نظريتي. إلا أنني حين وجدتُ نفسي داخل تلك الردهة الرائعة أسرني جمالُ المكان. رأيتُ مضارب الجولف ومضارب التنس، والقبعات والقلنسوات المصنوعة من القش، وصفوف القفازات، وحزمة من عِصِي المشي، التي قد تجدُها جميعًا في آلاف البيوت البريطانية. غطتْ كومةٌ من المعاطف والملابس المضادة للماء والمطوية بعناية بالغة الجزءَ العلوي من صندوق قديم مصنوع من خشب البلوط، كما رأيتُ ساعة خشبية قديمة ذات بندول تدقُّ، وبعض أجهزة تدفئة الفراش النحاسية المصقولة معلقةً على الحائط، وجهاز بارومتر، وصورًا مطبوعة لتشيلترن وهو يفوز بسباق سانت ليجير. كان المكان تقليديًّا ككنيسة أَنْجليكانيَّة. وحين سألتْني الخادمة عن اسمي قلتُه لها تلقائيًّا، فأدخلتْني إلى غرفة التدخين على الجانب الأيمن من الردهة.

أما تلك الغرفة فكانت أسوأ. لم يكن لديَّ وقتٌ لفحصها، لكني استطعتُ أن أرى فوق رفِّ المدفأة بعضَ الصور الفوتوغرافية المؤطرة لمجموعات من الأشخاص، وكدتُ أُقسم بأنها كانت صورًا من مدرسة عامة أو كلية إنجليزية. لم يسعْني إلا إلقاءُ نظرة واحدة خاطفة؛ إذ استطعتُ أن أستجمعَ شتات نفسي وأتبعَ الخادمة. إلا إنني كنتُ قد تأخرتُ كثيرًا. كانت قد دخلت بالفعل إلى غرفة الطعام وأعطتِ اسمي لسيدها، وفقدتُ فرصة رؤية ردَّة فعل الرجال الثلاثة لدى سماعه.

حين دخلتُ إلى الغرفة كان الرجلُ العجوز على رأس المائدة قد وقف في مكانه واستدار لملاقاتي. كان يرتدي ملابس سهرة، من معطف قصير وربطة عنق سوداء، وكذلك كان حال الرجل الآخر، الذي أطلقتُ عليه في ذهني اسمَ الرجل البدين. أما الثالث، وهو الرجل الداكن البشرة، فكان يرتدي بِذْلة صوفية زرقاء اللون وياقة بيضاء ناعمة، وشارة أحد الأندية أو المدارس.

كان أسلوب الرجل الكبير السن رائعًا، قال بتردد: «سيد هاناي؟ هل أردتَ مقابلتي؟ أستميحكما عذرًا يا رفاق، لحظة واحدة وسأعود لأنضمَّ إليكما. من الأفضل أن نذهب إلى غرفة التدخين.»

على الرغم من أنه لم يكن لديَّ ذرةُ ثقة؛ فقد أجبرتُ نفسي على تأدية الدور. سحبتُ مقعدًا وجلستُ عليه.

قلتُ: «أعتقد أننا التقينا من قبل، وأظن أنك تعلمُ ما جئتُ لأجله.»

كان ضوء الغرفة خافتًا، ولكني بقدرٍ ما تسنَّى لي رؤية وجوههم، لعبوا دور الحيرة على أكمل وجه.

قال الرجل العجوز: «ربما هذا، ربما؛ فأنا لا أملك ذاكرة قوية، لكني يؤسفني أن أقول إنه سيتعيَّن عليك أن تُخبرنا ببغيتك يا سيدي، فأنا لا أعلم شيئًا عنها حقًّا.»

قلتُ، وقد بدا لي طوال الوقت أني أتحدثُ بكلام أحمقَ تمامًا: «حسنًا إذن. لقد جئتُ لأخبرَكم بأن اللعبة انتهت؛ فأنا معي إذنٌ بإلقاء القبض عليكم أنتم الثلاثة.»

قال الرجل العجوز، وقد بدتْ عليه صدمةٌ حقيقية: «القبض، إلقاء القبض علينا؟ يا إلهي الرحيم! لماذا؟»

«بتهمة قتل فرانكلين سكادر في لندن في الثالث والعشرين من الشهر الماضي.»

قال الرجل العجوز بصوت يغلب عليه الذهولُ: «لم أسمع بهذا الاسم من قبل مطلقًا.»

تحدَّث أحدُ الرجلين الآخرين، فقال: «إنها قضية قتل بورتلاند بليس. لقد قرأتُ عنها، يا إلهي، لا بد أنك مجنون يا سيدي! من أي جهة أنت؟»

قلت له: «من سكوتلاند يارد.»

بعد ذلك ساد الصمتُ لبرهة من الوقت. كان الرجل العجوز يُحدِّق في طبقِه ويحاول الإمساكَ بثمرة جوز؛ وهو الشكل النموذجي للحيرة البريئة.

بعد هذا تحدَّث الرجل البدين بصوت مرتفع، وتلعثم بعضَ الشيء كأنه يحاول انتقاءَ كلماته.

قال: «لا تضطربْ يا عمي. إن هذا كلَّه خطأٌ سخيف، لكن هذه الأشياء تحدث أحيانًا، ويمكننا بسهولة تصحيحُ الأمر؛ فلن يصعب علينا إثباتُ براءتنا، يمكنني إثباتُ أنني كنتُ خارج البلاد في يوم الثالث والعشرين من مايو، كما أن بوب كان في دارٍ لرعاية المسنين. أما أنت فقد كنتَ في لندن، لكن بإمكانك تفسيرُ ما كنت تفعله هناك.»

«صحيح يا بيرسي! بالطبع هذا سهل للغاية. يوم الثالث والعشرين! لقد كان ذلك هو اليوم التالي لزفاف أجاثا. دعني أتذكَّر. ماذا كنتُ أفعل؟ لقد أتيتُ في الصباح من ووكينج وتناولتُ الغداء في النادي مع تشارلي سايمونز. ثم، أجل، لقد تناولتُ العشاء في مطعم «ذا فيشمونجرز». أتذكَّرُ هذا؛ لأن المشروب الذي تناولتُه فيه لم يناسبْني، وشعرتُ

في صباح اليوم التالي بصداع شديد جرَّاء شرب الخمر. وفوق كل هذا، هذا هو صندوق السيجار الذي أحضرتُه معي من العشاء.» وأشار إلى غرض على الطاولة وضحك بعصبية.

قال الشابُّ موجهًا الكلام إليَّ باحترام: «أعتقدُ يا سيدي أنك ستُدرك أنك مخطئ. نحن نريد مساعدة القانون مثل جميع مواطني إنجلترا، ولا نريد أن تبدوَ سكوتلاند يارد بمظهر أحمق، أليس كذلك يا عمي؟»

ردَّ الرجل العجوز الذي بدا أنه قد استعاد صوتَه: «بالطبع يا بوب. بالطبع، سنبذل كلَّ ما في وسعنا لمساعدة السلطات. لكن ... لكن هذا كثير للغاية. ولا يمكنني التغاضي عنه.»

قال الرجل البدين: «كم ستضحك نيلي. لطالما قالت إنك ستموت من الملل؛ لأن لا شيءَ يحدث في حياتك. والآن ما حدث لك يفوق كلَّ وصف.» ثم بدأ يضحك بكل سعادة.

«يا إلهي، أجل، تخيَّلْ ذلك! يا لها من قصة نحكيها في النادي. حقًّا يا سيد هاناي، أفترضُ أنه يجدر بي الشعور بالغضب حتى أُظهرَ براءتي، لكنَّ الأمر مضحكٌ للغاية! حتى إنني أكاد أغفر لك ما أشعرتَني به من خوف! لقد كنتَ تبدو متجهمًا للغاية، لدرجة أنني ظننتُ أني ربما كنتُ أمشي في نومي وأقتل الناس.»

لا يمكن لهذا أن يكون تمثيلًا؛ فقد كان حقيقيًّا على نحوٍ محيِّر. شعرتُ بحرج شديد، وأولُ ما تبادر لي فعله أن أعتذر وأنسحب. إلا أنني قلتُ في نفسي لا بد لي من إنهاء ما بدأتُه، حتى ولو أصبحتُ مدعاةً لسخرية بريطانيا بأكملها. لم يكن الضوءُ القادم من الشموع على طاولة الطعام ساطعًا بما يكفي، وللتغطية على ارتباكي نهضتُ من مكاني، وسرتُ إلى الباب وأضأتُ المصباح الكهربائي. جعلهم الضوءُ الساطع المفاجئ يَطرِفون بأعينهم، ووقفتُ أتفحَّص الوجوه الثلاثة.

حسنًا، لم يُفِدْني هذا في شيء؛ فأحدهم كان عجوزًا أصلعَ، والآخر كان بدينًا، والثالث كان داكنَ البشرة ونحيلًا. لم أجد شيئًا في مظهرهم ينفي كونهم الثلاثة الذين طاردوني في اسكتلندا، لكني لم أجد شيئًا أيضًا يؤكِّد هذا. لم أستطع ببساطة تفسيرَ السبب في عدم عثوري على ما يُشعرني بالراحة، وأنا الذي حدَّقتُ في عينَي رجلين وأنا عامل إصلاح الطريق، وحدَّقتُ في عينَي رجل آخر وأنا نيل إينسلي، بخلاف تمتُّعي بذاكرة قوية وقدرات معقولة على الملاحظة. لقد كانوا يَبدون تمامًا كما يدَّعون، ولا يمكنني التيقنُ من هوية أيٍّ منهم.

وهناك في غرفة الطعام الرائعة هذه، حيث لوحات من حفر الكليشيهات معلقة على الجدران، وصورة لسيدة عجوز ترتدي مريولًا معلقة فوق رفِّ المدفأة، لم أرَ أيَّ شيء

يربط هؤلاء بأشرار الأرض السَّبَخة. رأيت صندوق سجائرَ فضيًّا بجواري، ورأيتُ أنه قد فاز به حضرة المحترم برسيفال أبلتون، من نادي سانت بيدا، في دورة للجولف. كان لزامًا عليَّ التمسكُ بشدة بكلمات بيتر بينار حتى أمنعَ نفسي من الانسحاب مسرعًا إلى خارج هذا المنزل.

قال الرجل العجوز بأسلوب مهذَّب: «حسنًا، هل اطمأننتَ بفحصك، يا سيدي؟»

حِرْتُ جوابًا.

«أتمنى أن تُدركَ أنه مما يتفق مع واجبك أن تتخلَّى عن هذا الأمر السخيف. أنا لن أُقدِّم أي شكوى، لكنك سترى كم هو مزعج للأشخاص المحترمين.»

هززتُ رأسي.

قال الرجل الشابُّ: «يا إلهي، إن هذا أكثرُ مما ينبغي!»

سأل الرجل البدين: «هل تقترح أن تذهبَ بنا إلى مخفر الشرطة؟ ربما يكون ذلك هو أفضلَ مخرج من هذا الموقف، لكني لا أعتقدُ أنك سترضى بالشرطة المحلية. من حقِّي أن أطلب منك رؤية الإذن الذي تحمله، لكني لا أريد التشكيك في نزاهتك؛ فأنت فقط تؤدي واجبك. لكنك لا بد أن تعترف بأن الأمر محرجٌ للغاية. ما الذي تقترح فعله؟»

لم يكن أمامي سوى استدعاء رجالي وإلقاء القبض عليهم، أو الاعتراف بخطئي والخروج من المكان. شعرتُ بذهول من المكان بأكمله؛ بجوِّ البراءة الواضح، ليستْ براءةً فحسب، بل ارتباكٌ صادق صريح وقلق ظاهر على وجوه الرجال الثلاثة.

تأوهتُ في داخلي وقلتُ: «آه يا بيتر بينار!» وللحظة كدتُ أن ألعن ما بي من غباء بالغ وأطلب منهم مسامحتي.

قال الرجل البدين: «في الوقت الحالي أقترحُ أن نلعب مباراة بريدج؛ فهذا سيُعطي السيد هاناي وقتًا لمراجعة نفسه، وأنتم تعلمون أننا كنَّا في انتظار لاعب رابع. هل تُجيد هذه اللعبة يا سيدي؟»

قبلتُ الدعوة كما لو كانت دعوةً عادية في أحد النوادي. لقد سيطر الأمرُ بأكمله على تفكيري. دخلنا إلى غرفة التدخين حيث وجدتُ طاولة اللعب مُعدَّة، وقُدِّم لي ما أدخِّنه وما أشربه. أخذتُ مكاني على الطاولة فيما يُشبه الحلم. كانت النافذة مفتوحة وضوء القمر كان يغمر الجروف الساحلية والبحر بمدِّه المرتفع بضوء أصفر. أما رأسي فكان يعجُّ بالأفكار الحمقاء. استعاد الرجالُ الثلاثة هدوءَهم، وأخذوا يتحدثون بأريحية بالكلام العامي الذي يمكنُك أن تسمعه في أي نادٍ للجولف. لا بد أني بدوتُ غريبَ الشكل وأنا جالس هناك معقود الحاجبَين وعيناي تجولان في المكان.

كان رفيقي في اللعب هو الشابَّ الداكنَ البشرة. أنا أُجيد لعبة البريدج، لكن لا بد أنني كنتُ سيئًا في تلك الليلة. لاحظوا أنهم تسببوا لي في الشعور بالحيرة، وأشعرهم ذلك براحة بالغة. ظللتُ أنظر إلى وجوههم، لكنها لم تُظهر شيئًا لي. لم يكن الأمر أنهم بَدَوا مختلفين؛ فقد كانوا مختلفين بالفعل. ظللتُ متمسكًا بيأسٍ بكلمات بيتر بينار.

ثم حدث شيءٌ ما جعلني أنتبهُ.

وضع الرجل العجوز أوراقَه على الطاولة ليُشعل سيجارًا. لم يلتقط السيجار في التوِّ، بل أسند ظهرَه للخلف في مقعده للحظة، وأخذ ينقرُ بأصابعه على ركبتَيه.

لقد كانت هي نفسها الحركة التي تذكرتُها حين وقفتُ أمامه في مزرعة الأرض السَّبَخة، والخادمان يوجِّهان مسدسَيهما إلى رأسي من الخلف.

أمر بسيط لم يستمرَّ إلا لثانية واحدة، وكانت ثمة احتمالات ألف لواحد أن أكون في هذه اللحظة مركِّزًا في أوراقي وأغفل ملاحظتَه. لكن هذا لم يحدث، وعلى الفور اتضح كلُّ شيء أمامي. لقد انزاحت غمامةٌ من ذهني، وأصبحتُ الآن أنظر إلى الرجال الثلاثة وأنا متيقن تمامًا هويتَهم الحقيقية.

دقَّت الساعة الموضوعة على رف المدفأة معلنةً العاشرة.

بدا وكأن الوجوه الثلاثة تتغير أمام عينيَّ، وتكشف لي عن أسرارها؛ فالرجل الشاب كان هو القاتل. ورأيتُ فيه الآن وحشية وقسوة، بينما لم أرَ في السابق سوى روح دعابة. تأكدت أن سكِّينَه هو الذي أسقط سكادر صريعًا على الأرض. ولا بد أن شخصًا على شاكلته هو مَن أطلق الرصاص على كارولیدس.

أما ملامح الرجل البدين فقد بدت وكأنها تنطمس وتتشكَّل من جديد، وأنا أنظر إليها. لم يكن لديه وجهٌ، بل مئات الأقنعة، التي كان يستطيع أن يضع منها ما شاء. لا بد أن هذا الرجل كان ممثلًا بارعًا. ربما كان هو مَن انتحل شخصية اللورد ألوا الليلةَ السابقة، وربما لا، فلم يَعُد هذا مهمًّا. تساءلتُ عما إذا كان هو أولَ من تعقَّب سكادر، وترك له بطاقته. لقد قال سكادر إنه كان يتلعثم في الكلام، ويمكنني تخيلُ ما يمكن أن يُضيفَه تمثيلُ هذا التلعثم من رعب.

إلا أن هذا الرجل المسن كان أفضلَ مَن في المجموعة. لقد كان عقلًا خالصًا، إنسانًا متبلد المشاعر متحجر القلب وماكرًا، يُشبه في قسوته مطرقةً تعمل بالبخار. والآن بعدما زالت الغشاوة عن عيني تساءلتُ أين رأيتُ الخير فيه. كان فكُّه كالصلب البارد، وعيناه فيهما ذلك اللمعان اللاإنساني الذي تراه في أعين الطيور الجارحة. واصلتُ اللعب، وفي كل

ثانية كان المزيدُ من الكراهية يتسلَّل إلى قلبي، حتى كدتُ أختنق، لدرجة أني لم أستطِع أن أُجيبَ رفيقي في اللعب حين خاطبني. لم يكن بمقدوري تحمُّلُ صحبتهم أكثر من هذا.

قال الرجل العجوز: «أوف! يا بوب! انظر إلى الساعة. من الأفضل أن تفكر في اللحاق بقطارك.» ثم استدار إليَّ وقال مضيفًا: «لا بد لبوب من الذهاب إلى البلدة الليلة.» بدتْ نبرةُ صوته الآن زائفةً لأقصى حدٍّ. نظرتُ إلى الساعة، وكانت تقترب من العاشرة والنصف.

قلت: «يؤسفني القولُ إن عليه إلغاءَ رحلته.»

قال الشاب: «آه، اللعنة، لقد ظننتُ أنك قد تخلَّيتَ عن هذا الهُراء. ببساطة لا بد لي من المغادرة. يمكنني أن أترك لك عنواني، وسأعطيك أي ضمانة تطلبها.»

قلت: «كلَّا، يجب أن تبقى.»

أعتقدُ أنهم في تلك اللحظة أدركوا أنه لا طائلَ من مواصلة الخدعة؛ ففرصتهم الوحيدة كانت في إقناعي بأني أتصرفُ بحماقة، وقد فشلوا في هذا. إلا أن الرجل العجوز عاد مرةً أخرى للكلام.

«أنا سأكفل ابن أخي. ينبغي أن يُرضيَك ذلك، يا سيد هاناي.» أكان هذا محضَ خيال، أم أني لاحظتُ بالفعل قدرًا من التعثر في سلاسة ذلك الصوت؟

لا بد أن الأمر كان كذلك، لأنني حين نظرتُ إليه، كان جفناه قد ارتخيَا كغمامة الصقر بالطريقة التي طبعها الخوفُ في ذاكرتي.

هنا أطلقتُ صافرتي.

وفي لحظةٍ انطفأتِ الأضواء. والتفَّت ذراعان قويتان حول خصري، تُغطِّيان الجيوب التي يُتوقع للمرء أن يحمل مسدسًا فيها.

صاح صوتٌ بلغة ألمانية: «بسرعة يا فرانز، الحذاء الطويل الرقبة، الحذاء الطويل الرقبة!» وبينما كان يتكلم رأيتُ اثنين من رفاقي يظهران على المرج المضاء بضوء القمر. قفز الشاب ذو البشرة الداكنة نحو النافذة، ومرَّ عبرها، وعبر السياج القصير قبل أن تستطيعَ أيُّ يد الإمساكَ به. أما أنا فقد أحكمتُ قبضتي على الرجل المسن، وبدتِ الغرفة ممتلئةً بالأشخاص. رأيتُ الرجل البدين ممسوكًا من رقبته، لكنَّ عينيَّ كانتا تبحثان في الخارج حيث أسرع فرانز متخطيًا الطريق نحو المدخل المسور المؤدي إلى درجات السُّلم المؤدية إلى الشاطئ. تبعه أحدُ الرجال، لكن لم تكن لديه فرصةٌ للحاق به؛ فقد أوصد المجرمُ الهارب بوابةَ السلالم خلفه، ووقفتُ أنا أحدِّق فيهما، وأنا أُطبق بيدي على رقبة

الرجل المسن، طوال الفترة التي يمكن أن يستغرقها المرءُ في النزول على تلك الدرجات حتى يصل إلى البحر.

فجأةً أفلت أسيري من قبضتي واندفع نحو الجدار. صدر صوتُ طقطقة كما لو أن رافعة قد جُذبت. صدر بعد هذا صوتُ دويٍّ منخفض من بعيد، من مكان ما تحت الأرض، ورأيتُ عبر النافذة سحابة من غبار أبيض تندفع إلى الخارج من حول درجات السُّلم.

أضاء شخصٌ ما الضوء.

فرأيتُ الرجل العجوز وهو ينظر إليَّ بعينَين متأججتَين.

صاح قائلًا: «إنه بأمان. لا يمكنك اللحاقُ به في الوقت المناسب ... لقد ذهب ... منتصرًا.» وأضاف، بالألمانية: «لقد حققتْ جماعةُ بلاك ستون نصرًا عظيمًا.»

رأيتُ في هاتين العينين أكثر من مجرد شعور بانتصار عادي. لقد كانتَا في السابق مغطَّاتَين مثل عينَي طائر جارح، لكنهما الآن تلمعان بكبرياء الصقور. لقد اشتعلتْ فيهما حرارةٌ بيضاء متعصبة وأدركتُ لأول مرة الأمرَ المفزِع الذي كنتُ أتصدَّى له. لقد كان هذا الرجل أكثرَ من مجرد جاسوس؛ لقد كان هذا الرجل بطريقته البغيضة تلك وطنيًّا.

وبينما كانت الأغلال تُوضع حول معصمَيه قلتُ له آخر كلماتي.

«أتمنى أن يستمتع فرانز بانتصاره جيدًا. يتعين عليَّ أن أُخبرَك أن يخت «أريادني» وقع تحت سيطرتنا منذ ساعة.»

بعد ثلاثة أسابيع، كما يعلم العالم أجمع، اندلعت الحربُ. انضممتُ إلى جيش كيتشنر الجديد في الأسبوع الأول من الحرب، وبسبب خبرتي في حرب ماتابيلي حصلتُ على رُتبة كابتن على الفور. إلا أنني أعتقدُ أنني كنتُ قد قدَّمتُ أكبرَ خدماتي لبلادي قبل أن أرتديَ الزيَّ العسكري.

هنداوي